خائنة الأعين

ثروت أباظة

Looloo
www.dvd4arab.com

دار نهضة مصر
للطبع والنشر

- ١ -

لقد سافرت إلى الإسكندرية خصيصاً مبكرة فى موعد السفر حتى لا ترى هذا الذى يحدث بالقاهرة ، وأرغمت زوجها على موعد السفر وأن يترك القضايا التى يدعى أنها كثيرة فى المكتب . ولم يكن زوجها ليستطيع أن يرد لها مطلبًا ، فحياة البيت جميعها قائمة على يديها ، ومهما يكن مكتبه يتيح له أن يقول عن القضايا ما شاء له القول ، فإن الحقيقة آخر الأمر هى أن المكتب يشكل عبئًا من الأعباء التى تنفق عليها زوجته ، ولولا شركتان تعطيان له مرتبًا شهريًا لكان ثمن السجائر وبنزين السيارة عبئًا آخر يضاف إلى أعباء زوجته . فهو لا يتحدث عن قضاياه أمام أوامر زوجته إلا بالإشارة العابرة التى لا تعنى إلا الإبقاء على أطلال رجولة .

و« سهام » تحب أن تنفق على البيت وعلى المكتب وعلى إصلاح السيارة وعلى كل شىء . فهذا الإنفاق يهيىء لها أن تكون صاحبة الكلمة العليا ، وطالما أحست بالراحة والسعادة كلما فكرت أنها تزوجت هذا الزوج ، فلو كان غيره ما استقامت لها الحياة ، ولكن « حمدى » خلق خصيصًا ليكون زوجها . ولا يكون شيئًا آخر غير هذا الزوج . و« سهام » تحب الناجحين من الرجال على أن يكون هؤلاء الناجحون ناسًا آخرين غير زوجها . فهى تعلم عن ثقة أن الرجل الناجح يجب أن

يشعر بكيانه فى بيته . . . ويحب أن يقول رأياً وأن تستمع زوجته لهذا الرأى ، بل الأدهى من ذلك أن تطيع الزوجة رأيه هذا ، فلو أنها تزوجت « درى » بدلا من حمدى لما استمر الزواج أكثر من أيام ولا تكتمل شهرًا على أى حال .

يستطيع درى أن يكون حبيبها ولكن يجب ألا يكون زوجها . « درى » طبيب عظام من أشهر أطباء العظام ، وهى تعرف أنه يحب أن يكون سعيدًا فى بيته غاية السعادة . فهى تعرف زوجته وكثيرًا ما روت لها عن عاداته فى البيت ، وكيف أصبح البيت جميعه ولا عمل له إلا إرضاءه ، وإتاحة الهدوء والراحة له فى الساعات التى يقضيها فى البيت .

عرفته « سهام » يوم التوت قدمها وهى تخرج من البانيو ، ومن ذلك اليوم توطدت الصداقة بينهما ، وقد أحبت هى أن تكون هذه الصداقة أسرية ، فما أن شفيت حتى دعته هو وزوجته إلى بيتها ولبى الدعوة ، واستطاعت « سهام » أن توطد صداقتها « بناهد » زوجته وأحبتها « ناهد » حتى لقد كانت تلقى إليها بخفايا نفسها وما يجيش فى صدرها من وساوس .

ولم تدهش « سهام » كثيرًا حين دعاها « درى » يومًا إلى أن تخرج معه منفردين ، ولم تدهش كذلك حين أخبرها أن لديه شقة صغيرة يحب أن يخلو فيها إلى نفسه .

والعجب أن « درى » أيضًا لم يدهش حين قالت له « سهام » قبل أن تخرج من الشقة .

– أين مفتاح هذه الشقة ؟

– هذا هو .

– أمعك مفتاح آخر ؟

– لا داعى لمفتاح آخر ؟

– هل هناك مفتاح آخر لهذه الشقة مع أحد ؟

– أبدًا .

– هل أنت واثق ؟

– إنى واثق تمام الثقة .

– فأنت إذن ستعطينى هذا المفتاح ولن تفتح هذه الشقة لغيرى ؟ !

– هذا أمر .

– تستطيع أن ترفض .

– بل لا أستطيع أن أرفض . . هذا هو المفتاح .

– قد آتى هنا من حين لآخر من غير علمك لأرتب الشقة ، ولأشترى ما تحتاج إليه فاحذر أن تكون أعطيت المفتاح لغيرى .

– لا تخافى .

– عليك أنت أن تخاف . . فإنك ستجد قتيلة فى شقة مستأجرة باسمك .

– أنا أقدر هذا . . ولن يأتى أحد إلى هذه الشقة مطلقاً .

– اتفقنا .

ولهذا بدأت علاقتهما . وكان عجيباً أن تحاول « سهام » أن تتوطد مع الأيام صلتها مع ناهد أكثر وأكثر . وقد يبدو للنظرة المجردة الساذجة أن « ناهد » لن تخبرها أن هناك صلة فى الخفاء بينها وبين أحد ، ولكن « ناهد » بذكاء خارق أخبرتها أنها تعرف شخصًا آخر غير زوجها ، فإن « ناهد » لن تتصور أن هذا الشخص الآخر هو زوجها ، ولم تكن « سهام » تريد أن تظن بها « ناهد » الغفلة لدرجة أنها ترضى بزوجها هذا الذى يدل منظره على الغباء الشديد ، فهى تحب أن تظهرها على ذكائها وعلى معرفتها بسخافة زوجها وتحب أيضًا أن تعرف منها « ناهد » أنها مثار إغراء للرجال وأن جمالها ليس عاطلا عن اجتذاب من يقدره ويعرف قيمته .

فلم يكن خافيًا أن زوجها يقدر غناها الشديد وإنفاقها على البيت . أما الجمال فلم يكن عنده بالأمر الخطير الذى يقيم حياة .

وكثرت زيارات « ناهد » إلى « سهام » . وكان « درى » كثيرًا ما يمر على زوجته عند « سهام » وكثيراً ما يقضيان السهرة هناك . وكان « حمدى » سعيداً بهذه الصداقة الجديدة التى ظن أنها قامت بين « درى » وبينه . وكثيراً ما كان يلح على ابنه « أسامة » وابنته « فريدة » أن يقضيا السهرة فى البيت لأن عمها « درى » سيكون موجودًا .

ولم يكن « أسامة » أو « فريدة » يهمهما من أمر أبيهما شىء ، فقد كان عندهما مجرد سميترية لأمهما . . ما دام هناك أم فلابد أن يكون هناك أب . . هذا كل ما فى الأمر . . فأبوهما هو مجرد التكملة الطبيعية أو غير الطبيعية لأمهما .

وهكذا كان يستهينان برأيه ، فقد كان أسامة فى السابعة عشرة حين كانت فريدة فى الخامسة عشرة . وفى هذه السن كان من المفروض ألا يعرفا لأبيهما غير الإحترام ، ولكن الاحترام شىء هلامى لا شكل له ولا صورة ولا قوام ، والشخص إما أن يكون محترمًا أولا يكون . بهبه من الطبيعة لا يعرف مأتاها إلا الخالق العظيم الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

وصاحب هذه الموهبة يفرضها على جميع من يتصل به دون أن يقوم هو بأى عمل ، إنما يجد نفسه محترمًا ويجد الناس أنفسهم يحترمونه . ومثل كل موهبة لابد للشخص أن يعين ما وهب له .

وهو يجد نفسه كذلك دون أن يدرى ، فهو يترفع عن الصغار ويختار الحديث قبل أن يلقيه ، ولا يقف موقفاً مزريًا أمام نفسه أو أمام الآخرين . والاحترام نوع من الموهبة التى تتوزع بين الناس بقدر ، فمنهم من نال منها قسطاً ومنهم من لم يكن له حظ منها . وهكذا لم يكن « أسامة » أو « فريدة » يحترمان أباهما . . وربما كان خدم البيت هم الذين ألقوا هذا النوع من عدم الاحترام إلى نفس السيدين الصغيرين .

وربما اضطر الشابان اضطرارًا إلى عدم الاحترام وهذا ، وهما يريان أباهما يتلقى أوامره دائماً من أمها ، فى حين أن كثيراً ما يناقش الخدم هذه الأوامر .

وربما كان السبب فى عدم احترامها لأبيها واحدًا من هذه الأسباب أو كانت هذه الأسباب مجتمعة ، ولكن الأمر الذى لا شك فيه أنها لم يحملا له احتراماً منذ فجر حياتها .

وهكذا كان كل منهما لا يجد فى أمر أبيه له بالبقاء مع عمها « درى » شيئًا واجب الطاعة ، بل لعلهما كانا يريان فيه شيئًا واجب العصيان .

أما مع أمها فإن الأمر يختلف ، فقد كانا فى هذه السن الباكرة يجدان فى أوامر أمها جنوحًا إلى التحكم ولكنهما لم يدركا هذا المعنى يومذاك ، وإنما كل ما كانا يدركانه أنهما لا يجدان نفسيهما مثل زملائهما من الصبيان والبنات .

فبينما كان الأبناء يخرجون إلى الشارع يلعبون كانا هما حبيسين فى البيت لا يخرجان إلا مع دادة . كانت الأم تحرص على أن تريهما كما تزين منضدة عندها .

كانت تحرص على زينة « أسامة » و« فريدة » فلا يلبسان إلا أغلى الثياب وأعلاها سعرًا ، فقد كانت تحب أن ترى غناها فى ملابس

طفليها . وكانت تحدد الساعة التى يتنزهان فيها مع الدادة بحيث لا يتأخران عنها دقيقة واحدة .

حتى إذا كان الليل لم تكن تلقى عليهما غطاء سميكاً فى الشتاء كما تفعل كل الأمهات ، وإنما كانت تدخلها فى شوال من البطاطين وتربط الشوال عند رقبة كل منهما وذراعا كل منهما فى داخل الشوال .

كان هذا الشوال يمثل تماماً أخلاق «سهام» فقد كانت تحب أن تسيطر على كل حركة من ولديها أو زوجها ، وقد استطاع الشوال أن يمكنها من هذا مع إبنها وإبنتها ولو كان قريباً من المعقول أن تضع زوجها فى شوال ما توانت ، ولكن خشيت أن يسخر منها الآخرون . أما زوجها فما كان ليعارض لو أنها أرادت به هذا .

ولم تكن «سهام» لتهتم أن يكون إبنها وبنتها حاضرين مع « درى » أو لا يكونا ، ولذلك فقد كانا ينصرفان إلى حجرتيهما ويصنعان أى شئ إلا أن يذاكرا .

لكن سهام لاحظت أن أختها « إلهام » كثيراً ما تكون حاضرة عندما يأتى إليها « درى » .

« وإلهام » هذه فقدت زوجها منذ سنتين ، وكان هذا الفقدان فجيعة للأسرة جميعاً . فقد كانت حياة « إلهام » و « توفيق » زوجها الراحل مضرب الأمثال فى السعادة والهناء والحب . وعلى الرغم من أن

« إلهام » كانت عاقراً لم تهب له البنين فى السنوات الخمس التى عاشاها معاً فإنه كان يحبها حب تقديس . كما كانت هى لا ترى السعادة إلا فى عينيه الصافيتين .

وكانت « إلهام » حين مات عنها زوجها قد تركت الثلاثين من عمرها بسنوات قلائل . وقد كانت تكبر « سهام » بسنتين . إلا أن السن فى هذه الفترة المبكرة من الشباب لا يظهر لها أثر . « فإلهام » ناضرة كوردة قوية أو كشجرة ليس من طبيعتها أن تثمر . ضاحكة الوجه حتى وإن حاولت أن تبدو حزينة . بيضاء فى حمرة من الجمال والصحة معاً . دقيقة الجسم فارعة الطول جذابة النظرة . ذات عينين سوداوين . سواداً شديداً . وبياضها أشد بياضاً . فكأنها العيون التى كان شعراء العرب يقولون عنها إن فى طرفها حوراً . وكان شعرها أسود فاحماً منسدلاً فى إنسياب ورزانة عند كتفيها . ومن يرى « إلهام » إلى جانب « سهام » لا يعتقد بحال أنهما أختان . فقد كانت « سهام » ذات شعر عربيد ثائر فى غير شرود . وكان بياضها ناصعاً . وكانت عيناها خضراوين فيهما أصرار . وفيهما فرح . وفيهما رغبة . وفيهما تخاضع . اختلطت هذه الإشعاعات جميعاً . ولكنها عندما تريد ينبعث الشعاع الذى تريد بما قدرت له أن يكون نافذاً حيث ينبغى أن ينفذ مؤدياً ما شاءت أن يؤدى .

كانت « إلهام » كثيراً ما تزور « سهام » ولم تكن « سهام » ترى فى

ذلك عجباً . وأى عجب يمكن أن يكون . فهما أختان بينهما مثل ما بين كل الأخوات من حب شابه فى حين من الأحيان خلافات حول ميراثهما من أبيهما . ولكن قليلاً ما استمرت هذه الخلافات . فالأب كان يعلم أن ابنتيه لن يرثا كل ما له إذا هو ترك المال يورث . فوزع عماراته على بناته بيعاً وشراء بطريقة غاية فى الذكاء حتى لا يدعى أحد على العقود صوريه . وغاية فى العدل بحيث لا تشعر واحدة من البنتين أنها غبنت . ولم يكن الخلاف إلا حول أشياء قليلة تركها فى الخزانة . وحسمت الأم هذه الخلافات بأوامر لها صارمة لا تناقش . وعاد الحب الطبيعى يجمع بين الأختين .

وكانت « إلهام » تعيش مع أمها بعد أن مات عنها زوجها . فكان من الطبيعى أن تذهب كثيراً لزيارة أختها . وما لها لا تفعل والسيارة تحت قدمها .

ولكن « سهام » مع ذلك لم تقتنع بالمصادفات العجيبة التى جعلت « إلهام » تكون موجودة كلما كان « درى » و « ناهد » موجودين .

هذه لعبتنا ياست . . . أم تراك أنت الأخرى تلعبينها .

ولقد راقبت « سهام » أختها رقابة شديدة . فلم تلحظ عليها شيئاً . ولا على « درى » لاحظت شيئاً . ولكن لا . . . على من ! هذا التحفظ كله يخفى ما يدعو إلى الشك .

ولكن كيف يجرؤ على هذا التفكير . . . إنه حب جديد . . . ألا يغنيه حبى ، حتى يبحث عن حب آخر ! ! ويله ! ! إن « إلهام » أرمل . . إذن فقد يكون فى الأمر زواج . . أقتله فقد يشكو لى من « ناهد » وأنها لا تفهمه ، ولكنها أيضاً كانت لا تسأله عن شئ فى حياته خارج البيت . . وبقدر ما كان سعيداً لهذا بقدر ما كان يرى فيه غباء منها يضيفه إلى غباوات أخرى كثيرةتبدو منها .

فالطاعة العمياء من الزوجة غباء عند الزوج . ملاعين هؤلاء الرجال لا يحبون أن يعارضهم أحد . ولا أن يناقشهم أحد . فإذا وجدوا المرأة التى لا تعارضهم ولا تناقشهم فهى غبية . وإن عارضت أو ناقشت فهى امرأة متعبة تملأ حياتهم تنغيصاً ، وتجعل البيت الذى ينبغى أن يكون مثابة للراحة والإستراحاء ، نيابة عامة أو مجلساً نيابياً .

كانت لا تعجبه « ناهد » ، ويل له إذن من « إلهام » . المهم أن أعرف هل صحيح ما أفكر فيه ؟ ! أكاد أقطع بأنه صحيح . فإن كان ؟ أهو استلطاف أم حب أو زواج ؟ الزواج هو أهون الشرور . فمن حقه مادام قد وجد من تمتع عواطفه أن يبحث عمن تمتع بيته . ولكن هناك شرط . . . ألا يكون الزواج على حب ! ليس من المحتم أن يكون الزواج على حب ، بل إن الأفضل أن يكون الزواج عن غير حب . . . فهذا زواجى مع « حمدى » قد توجد فيه كل العواطف إلا الحب . . يحب أولاده على الرغم من أنهم لا يحترمونه ، ولكنه يحبهم حب

جنون ، فهو يشعر أنهما يقويان الصلة بينى وبينه ، وهكذا يستطيع أن يأمن بقاء الحياة بيننا . فهو واثق أننى لا أحبه برغم أننى الوحيدة إلتى أبدى احترامى له فى البيت ، ولا أقول عنه إلا البيه إذا تحدثت عنه . . . قد يثيرنى أحياناً بغبائه فأضطر إلى إسكاته حتى ينكتم ، وقد أضطر أحياناً أخرى أن أعطيه بعض النقود أمام الخدم ، ولكننى مع ذلك الوحيدة التى تحترمه فى البيت .

مهما يكن الأمر فزواجى من « حمدى » زواج ناجح ، وربما هو ناجح لأنه لا صلة له بالحب . . كل منا لا يطالب الآخر بالحب . ربما طالبت أنا ببعض أشياء تعبر عن الحب ، كالاحتفال بعيد ميلادى أو الاهتمام بطلباتى ، ولكننى لا أطلب ذلك من باعث الحب عند « حمدى » ، وإنما أطلبه فى مقابل ما أقدم له من مال . فأنا من حقى – لا شك – فى مقابل هذا المال الذى أنفقه عليه وعلى البيت وعلى الأولاد أن أطالب ببعض أهتمام ، أو ربما حتى بكثير من الأهتمام . . . هذا حق . .

على أية حال بيتى ثابت غير متعرض لأية أعاصير . « فحمدى » لا يعرف كيف يغضب مهما أفعل أنا ، وأنا إن غضبت يعرف كيف يكست ، ودائماً تمر الأمور ويظل بيتنا ثابتاً . لأنه لو قام على الحب لكان نهباً للأعاصير . فإن المحبين يطلبون الكثير ولا ينالون إلا القليل . فويل إذن « لدرى » إن فكر فى الزواج عن حب .

أما إذا كان زواجاً لمجرد الزواج فالمصيبة أهون . إلا أنه حينئذ سيقع سجيناً « لإلهام » من العسير أن يفلت منها . ولكنه طبيب ما يزال . أما إفلاته فأمر يمكن تدبيره . ولكن لابد أن أعرف . . . لابد أن أعرف .

– أليس هذا شيئاً غريباً ؟

– أبداً .

– فى كل مرة ! !

– مصادفة .

– « درى » .

– نعم .

– فتح عينيك .

– على الآخر .

– من إلتى أمامك ؟ .

– المؤكد ليست « ناهد » .

– إذن اعتدل .

– معدول والله !

– مصادفة ؟

– مصادفة .

– « درى » .

– ماذا تظنين ؟

– لا شأن لك بما أظن أريد الحقيقة .

– أنت تعرفين صداقتها « بناهد » .

– « درى » .

– أفندم .

– أنت تعرف أن صداقة « ناهد » هذه لعبتى أنا .

– فما الغرابة أن تكون لعبة أختك .

– إذا فهناك لعبة .

– على كل حال ليس من جهتى .

– لا تهمنى الجهة .

– وعلى كل لست أنا الذى علمتها اللعبة .

– ولا يهمنى ممن تعلمتها .

– قولى ماذا تريدين ؟

– هل هناك شىء .

– وافرضى .

– أقتلك .

– ألا تعرفين أولا .

– طبعاً زواج .

– مثلا .

– أقتلك .

– وماذا يهمك .

– كيف لا يهمنى .

– أليست أختك أولى من « ناهد » .

– زواج حب طبعاً .

– وهل يترك حبك مكاناً لحب آخر .

– علىّ أنا هذا الكلام .

– وحياة بنتى الوحيدة إن هذا الزواج لا صله له مطلقاً بحبنا .

– فما أسبابه .

– أريد زوجة تعرف كيف ترتب بيتها تعرف كيف تجعل الرجل يحياأنا أراك مرة فى الأسبوع أو مرتين . . الأسبوع كله مع زوجة لا تفهم شيئاً لماذا لا أعيش مثل كل الأطباء الذين نجحوا كما نجحت . . لماذا أكون وحدى مع زوجة لا تفهم شيئاً .

– من أجل هذا فقط !

– فقط .

– من أين عرف .

– ذكاؤك يدلك .

والتقيا فى قبلة .

° ° °

– كيف تزوجت «ناهد » ؟

– كأى زواج .

– سمعنا غير ذلك .

– أبداً .

– « درى » ؟

– أبدا والله .

– ربما ... هل رأيتها جميلة ؟

– حين تزوجتها لم أكن أراها قبيحة .

– على كل حال هى عادية لا جميلة ولا قبيحة .

– الشباب فى أول حياته لا يفرق كثيراً بين أحجام الجمال .

– ولماذا كرهتها ؟

– لم تستطع أن تجعلنى أحبها .

– وكيف تستطيع امرأة أن تجعلك تحبها ؟

– أنت تعرفين ذلك جيداً . .

– لو كنت زوجى لما أحببتنى .

– أنت كما أحب المرأة أن تكون . .

– كلام .

– أتريدين مزيداً من كلمات الحب ؟

– لا تضر .

– ولا تنفع . . أنت تعرفين ماذا أنت عندى .

– هل أنت واثق ؟

– أنت واثقة .

– نعم . . . . أعتقد ذلك .

° ° °

وكانت بواكير الصيف قد أقبلت وسارعت « سهام » بالسفر إلى الإسكندرية حتى لا ترى كيف يتقرب « درى » « لإلهام » . . . وكانت تأمل أن يتم الزواج دون استدعاء لها متصور بأن زواج أرملة من رجل مطلق لا يحتاج إلى احتفال ، وحاولت أن تنسى أن « إلهام » تحب كل شىء لها أن يكون على أتم رواء ، وحاولت أن تنسى أيضاً أن « إلهام » لا تحب أن تتركهم يستمتعون بوقتهم .

وهكذا أعاد استدعاؤها إلى القاهرة كل ما حاولت أن تنساه . قالت لها أمها :

– أختك ستتزوج بعد غد .

ولم تسألها عن الزوج وتعجبت الأم ولكنها لم تقل شيئاً « إلهام » . .وحين طلبت « سهام » أن تكلم أختها لم تجدها فحمدت الله فى سرها وانتهت المكالمة بين عجب من الأم وغيظ من الأبنة .

وها هى ذى تقطع الطريق مع « حمدى » إلى القاهرة فى سيارتها الجديدة التى اشترتها له وأبقت رخصتها باسمها . . تاركه « أسامة » و « فريدة » مع « توحيدة » الدادة ليكونا عذرها فى عود سريع .

- ٢ -

أهو انتقام ما أفعل . . . هل لم تستطع كل هذه السنين أن تمحو من نفسى ذلك اليوم . . ألم تستطع « عبير » أن تنسينى ذلك اليوم . . ألم تستطع هى نفسها « ناهد » أن تنسينى ذلك اليوم . . . أعزيزة هى الحرية إلى هذا الحد . إن لم تتح لى الحرية فى اختيار زوجتى ففيم إذن . . بل إننى أريد الحرية فى كل شىء . . . أحمد الله أننى لست كاتبًا . . . فالكاتب – فيما أعتقد – كثيرًا ما يرغم على ابتلاع كلام كتير يريد أن يقوله . كيف يستطيع كتّاب روسيا أن يسموا أنفسهم كتاباً ! ! إنهم آلات كاتبة يدق عليها أعضاء الحزب . . . بل يدق عليها سكرتير الحزب وحده بدعوى كاذبة أن هذه إرادة الحزب أو إرادة الشعب كما يحبون دائماً أن يقولوا . . . ما هذا الخوف . . . ما دخل روسيا والحزب وكتّاب روسيا فيما أفكر فيه . . . عجيب هذا العقل يشرد برغم أنف صاحبه ويذهب إلى مذاهب عجيبة من التفكير بلا رقيب أو حسيب . قرأت مرة فى رواية ترسم المستقبل أن هناك آلة سيكون من شأنها معرفة ما يفكر فيه العقل ، ويقول المؤلف إن الدولة ستعتمد على هذه الآلة فى محاسبة الناس على أفكارهم . . أعوذ بالله . . . إن الله لا يحاسب الناس على أفكارهم . . عجيبة أن يذكر الناس الله فى هذه المواضع . لقد نسوا أن الله رحمة ، ولو أن الدول حاسبت الناس كما يحاسبهم الله

لأصبح البشر فى سعادة لا تماثلها سعادة . ولأصبح الذهاب إلى الجنة لا داعى له .

وهل هناك داع للذهاب إلى الجنة . . . . لابد أننا فى كل ما نفعل نحاول أن نهيئ لأنفسنا جنة على الأرض . ونخفق طبعاً لأننا بشر . . . الجنة هل هى حور عين وأنهر من عسل . . . إنها صفات حسية ذكرت لقوم كان الحس عندهم مجسماً دائماً فى الجنس والمأكل . . أما الجنة عندى فهى السعادة . . قد لا نأكل هنالك شيئاً وقد لا نجد حورًا عينًا أو غير عين . ولكننا لاشك سنجد السعادة . . سنعيشها . نعرفها مشرقة دائمًا فى نفوسنا لا ومضة وتختفى . أو لحظة وتزول . وإنما نعرفها بلا نهاية . . . ولا يصيبنا الملل . . . . وهل مع السعادة ملل ؟ ! إن الذى خلق الإنسان وصنع النفس والروح وشكلها كما يشاء . لا يصعب عليه أن يمحق الملل من الحياة الأخرى . ومن أين يأتى الملل . . إننا إن لم نصنع شيئاً إلا الالتقاء بالعباقرة الذين سبقونا ليقصوا علينا قصصهم الصغيرة والكبيرة . ومشاعرهم دون نفاق للمجتمع أو خوف من الناس . لا ندحر الملل عنّا ولذهب إلى غير رجعة وإلى الأبد . . أهناك أبد ! ! إن الآخرة هى الأبد . كأنى نسيت أن هناك ناراً أيضاً لا بد أن تمر بها من باب العلم بالشىء . .

اسمع . . . أنا طبيب . . . ولا بد أن أعرف ما الذى جعلنى أفكر فى الجنة والنار الآن . . .

هل أنا مخطئ فيما اتخذت من قرار؟

زوجتى وابنتى أتركهما . . . من أجل ماذا ؟

هل أحب « إلهام » ؟

المؤكد أنها لم ترغمنى على الزواج بها . إن الذى فعلته بى « ناهد » لا أستطيع أن أقبله . حتى وإن كانت قد جاءت لى « بعبير » . وحتى لوكان قد مضى على زواجنا عشر سنوات .

أهذا هو السبب الحقيقى فى زواجك اليوم ؟ أتريد أن تقنع نفسك بهذا ؟ . إنه السبب . إنه السبب كتمته وبالغت فى كتمانه . لأننى لا أحب أن يقال عن « عبير » إن أمها كانت تستقبل أباها فى حجرة نومها قبل الزواج . . إن « عبير » هى كل شىء لى . . أتترك أمها . . . يستطيع أى رجل أن يختلف مع زوجته . ولكن ليس من حق أى أم أن تستقبل رجلا فى حجرتها قبل الزواج منه . وقد شاعت هذه القصة فى هذه الأيام . ولو أننى طلقتها بعد سنة أو اثنتين . أو حتى بعد خمس سنوات لعادت القصة إلى الظهور مرة أخرى كأعنف ما يكون الظهور . ! إن « سهام » لم تعفنى من ذكر هذه القصة وهى تجرى معى تحقيقها حول الزواج . فالقصة شاعت وعرفها الجميع . . . فى البيت خدم . والخدم يحبون أن يعرفوا كل شىء . وأى شىء أروع فى الحكاية من أب وأم يدخلان إلى حجرة ابنتهما ليجدا بها الدكتور « درى » والساعة تقترب من الفجر .

الحكاية شاعت . وسمعت يومذاك فيما سمعت أن الأمر كان مدبراً بين « ناهد » وأبويها . . . وأننى أرجح هذا . . أرجحه .

– لابد أشوفك الليلة .

– لماذا الليلة ؟

– ولمَ لا ؟

– هل هناك مناسبة خاصة ؟

– اشتقت إليك .

– أنا تعبان الليلة « ياناهد » .

– حتى وإن كنت اشتقت لك .

[موعد عجيب للاشتياق] .

– عندى عملية .

– تعال بعدها .

– وموعد على العشاء .

– اعتذر .

– لا أستطيع .

– تعال بعد العشاء .

– سنذهب إلى المسرح .

– اعتذر .

– لا يمكن .

– تعال بعد المسرح .
– سأكون متعباً جدًّا .
– أراك لحظة وامش .

أليس هذا شيئاً عجيباً . . وفعلا ما هى إلا لحظة حتى أطبق عليها أبواها . . . وتم الزواج فى الحال . وكان الإسراع بالزواج تأييدًا لما نقله الخدم إلى الناس عما حدث ، ولكن الوالدين و« ناهد » لم يكن يهمهم إلا أن يتم الزواج .

لم تصف نفسى منذ ذلك اليوم ولكن « عبير » جاءت . . . وجاءت مسرعة وكأنها كانت مشتركة فى المؤامره مع أمها وجديها .

وسكت .
ومرت السنون .
وكبرت « عبير » .

ألا يجدر بى أن أعيش مع سيدة أحترمها على الأقل ! ! كيف أستطيع أن أكمل حياتى مع سيدة اغتصبت حياتى معها وأرغمتنى عليها ارغاماً ؟ !

ليس الحب ما أبحث عنه ، وإنما الاحترام . . والاطمئنان لبيتى . كيف أستطيع أن أطمئن على بيتى والسيدة التى فيه دبرت زواجى منها كما تدبر المؤامرات !

ألا أخشى إذا تركت البيت ولم تجد الرقيب أن ترتكب من الأفعال ما يسىء إلى سمعة ابنتى . .

لقد فكرت فى هذا أيضاً . . . وأغلب الأمر أنها لن تفعل ، إنها خبيرة فى المؤامرات ، وستحاول أن تبدو أمام « عبير » مجنيًّا عليها بغير سبب .

ألا أخشى أن تكرهنى « عبير » ؟

إنها تعبدنى .

وأنا أعبدها ولا أستطيع أن أقول لها عن أمها شيئاً . . ستغضب « عبير » ولكنها ستصفح . . ستظن وسأجعلها تظن أننى أحببت « إلهام » ، والحب عند من فى سنها هذه شىء مقدس ، وستحاول أن تبدو وكأنها فهمت كل شىء ، وأنها تقدر مشاعرى وستصفح ، لأنها تريد أن تصفح . عجيب شأن الناس وتفكيرهم . أخلاط من المشاعر والآراء تلتقى بلا معنى ، وتفترق بلا مبرر ، ولكن مع كل هذا ما الذى جعلنى أفكر فى الروس ، والحرية والجنة والنار أيضاً ؟ ! ما دخل هذا جميعه « بناهد » أو « إلهام » أو « عبير » أو أنا . . . أنا لا أدرى .

° ° °

— ٣ —

هل أحبه حقًا ؟ ! المؤكد أننى أحب حبه لى . . إن هذا الجمال الذى أراه فى المرأة أعظم من أى حب . وإنما يجب فقط أن يستقبل حب الناس . كان « توفيق » بارعاً فى حبه لى . وقد أحببت حبه هذا لى وفتنت به . وظن الناس أننى أحبه هو . كم هم مجانين . هؤلاء الناس كيف يتصورون أن هذا الجمال يستطيع أن يحب . إن جمالى خلق ليحبه الناس فقط ، وحسب « توفيق » أننى أعطيه حقوق الزوج . ويكون مجنوناً كل من يفكر أن ينال جسمى وقلبى أيضاً . وحين وهبت « لتوفيق » هذا الجسم كان هناك شرط واحد وضعته لنفسى ، ولم أخبر به أحدًا وأنا وحدى الذى أستطيع أن أحافظ على تنفيذه دون عون من أحد .

لقد وهبت جسمى « لتوفيق » على ألا يفسد جماله ، ولهذا رفضت أن أحمل أطفالا رفضاً باتًا ، ولم يعلم توفيق برفضى هذا حتى لا يناقشنى فيه ، فهو أمر لا أفكر فى مناقشته على الإطلاق .

مسكين « توفيق » كان كل شهر يمر بى على أطباء أمراض النساء ، وكان الأطباء جميعاً يقولون ليس هناك ما يمنع الحمل . ولم يكن أحد منهم يتصور أننى أنا التى أمنع الحمل وليس غيرى .

وفى يوم لا أنساه لم أتخذ ما أتخذه من الاحتياط ، وعلمت أننى

حامل . وأوشك « توفيق » أن يعرف . فقد كان يحسب المواعيد كسيدة ، وداعبه الأمل يومًا بعد يوم ، وكنت أنا قد سارعت فى خفيه منه إلى الطبيب وتخلصت من الطفل . ومات « توفيق » المسكين وهو لا يعلم عن هذه الواقعة شيئاً . كيف أطيق أن أعيش طفلا داخل بطنى الضامر هذا ثم أرضعه أيضاً ؟ هيهات ! ! . كيف يتجرأ الطفل أن يدمر جمالى هذا . . إنه هبه من الله على أن أجعلها معبداً للحب ثم لا شىء آخر . لست أنثى كجميع النساء ، إننى نوع من الجمال يحبو به الله البشرية حيناً بعد حين .

أعتقد أن « درى » لا يهمه أن ينجب أطفالا ، وما حاجته إلى أكثر من « عبير » وإن كان يريد فليأت بهم من غيرى . أى واحدة غيرى . . . أيجروء أن ينظر إلى غيرى وهو زوجى . إن زوجى يجب أن يكون وظيفته زوجى فقط . هكذا كان « توفيق » ، وهكذا لا بد أن يكون « درى » .

ولكن « درى » طبيب مشهور ، وما شأنى أنا ، ولكن لا بأس أن أكون زوجة مشهور . فالشهرة مع الجمال أمر لا بأس به فى حد ذاته ، ولو أنى ضيقت عليه المسالك أغلب الأمر أنه سيفقد الشهرة ، مجانين هؤلاء الناس . ألا يكفى أن يكون « درى » زوجى حتى يذهب إليه جميع الناس ، ألا بد أن يكون ماهرًا أيضاً فى عمله ، ودقيقاً فى عملياته ، ومحافظاً على مواعيده .

ولكن من ناحية أخرى لا بأس بهذه الشهرة ، فهى ترغم الرجل أن يكون عفيفاً مع النساء ، فلا يتبذل حتى لا تسوء سمعته .

إن صلته « بسهام » لا تعجبنى . إن « سهام » لا يمنعها شىء فى سبيل أن تثبت لنفسها أنها فى مثل جمالى . مسكينة « سهام » . لقد أفسدت عليها حياتها .

وأنا ماذا بيدى أن أصنع هكذا خلقت بهذا الجمال ، وما كان من الممكن أن تخلق اثنتان فى مثل جمالى ، حتى وإن كانت الثانية هى أختى الشقيقة .

إن كان بين « درى » و« سهام » شىء فلابد أن ينقطع ، وسوف أمنعه أن يذهب . لابد أن أمنعه . فإننى واثقة أننى لابد أن أمنعه . فأنا أعرف « سهام » ، وليس بعيداً أن يكون بينها وبين « درى » شىء ما . بل لابد أن هناك شيئاً . « فحمدى » لا يصلح صديقاً « لدرى » ، بل لا يصلح صديقاً لأحد أبدًا ، و« ناهد » لا تصلح صديقة « لسهام » . فأنا أعرف النوع الذى تحب « سهام » أن تصادقه . وليست « ناهد » من هذا النوع ، الصداقة الوحيدة – وهى ليست صداقة – التى يمكن أن تقوم هى تلك التى تربط « درى » « بسهام » . وإن لم تكن علاقة قد قامت فلا شك أن « سهام » ستقيمها بعد أن يتزوجنى درى فأنا التى أنغص عليها بجمالى حياتها وعدم زيارة درى كفيلة أن تقطع العلاقة إن كانت قامت أو تمنع قيامها إن حاولت « سهام » أن تقيمها .

ولكن من يدريني ؟ ربما اتصل بها عن غير طريق الزيارة ! ! أيكون عنده كل هذا الجمال وينظر لغيرى . لم يخلق بعد الرجل الذى يتزوج مثلى – إن كان لى مثل – وينظر إلى غيرى . لا لم يوجد .

كانت وحدها فى الغرفة ، وكانت بسبيلها إلى الخروج لتشترى الأثاث الجديد لبيت الزوجية . فقد أصرت ألا تقيم فى بيت كان فيه مع زوجة أخرى . فهى لم تكتف أن يطلق « ناهد » . وإنما أرادته أن يطلق حياته السابقة جميعاً ، وكانت أحبت « عبير » ، ولم تر بأسا أن تظل معه إذا أراد ذلك . وقد رأت فيها وسيلة تجعله لا يفكر فى إنجاب أطفال آخرين .

واشترى « درى » فيلا جديدة ليقيم فيها ويترك شقته لزوجته . ولم يقل شيئاً لهذه أو لتلك ، وإنما ترك البيت فى موعده العادى الذى يتركه فيه كل يوم . وبعد ساعة كانت ورقة الطلاق فى يد « ناهد » . وجن بها الجنون ، ولم تجد أحدًا تحادثه ، وحاولت أن تتصل « بسهام » فوجدتها فى الإسكندرية ، ثم اتصلت بصديقات غيرها ، وما لبث الخبر أن أصبح قنبلة بين من يعرف الزوجين ومن لا يعرفهما .

وأقام « درى بفندق ميناهاوس ، وذهبت إليه « عبير » ، وقالت الطفلة المسكينة كلاماً كان واضحاً أنها لا تفهمه وإنما لُقنته تلقيناً .

– بابى هل طلقت مامى ؟

– لا شأن لك بهذا يا « عبير » .

– وأنا إلى أين أذهب ؟

– عند مامى وعندى .

– ولكن لماذا يا بابى ؟

– ستعرفين فى يوم ما يا ابنتى . . فى يوم ما ستعرفين .

– صحيح . . هل ستخبرنى ؟

– المؤكد أننى سأخبرك .

– أتحبنى يا بابى ؟

– هل تشكين فى هذا ؟

– لا . .

– فلماذا تسألين ؟

– لا أعرف أريد أن أسأل .

كان هذا هو السؤال الوحيد الذى صاغته « عبير » دون تلقين .

وسرعان ماكتب « درى » كتابه على « إلهام » . فكانت قنبلة ثانية . ثم انشغل الناس كل بخاصة شأنه . وفرغت « إلهام » لشراء الأثاث . وتهيأ « درى » لحياة جديدة .

° ° °

– ٤ –

كان طبيعياً أن تزورها أمها . وكان طبيعيًّا أيضاً أن تأتى معها الدادة آمنة .

إنها لا تستطيع أن تنظر إليها . كانت آمنة هى آخر إنسان تحب أن تراه فى لحظتها النكدة هذه .

إنها هى صندوق أسرارها ، وتعرف كل شىء منذ ذلك اليوم الذى التقت فيه « بدرى » .

وكانت حفلة فى بيت صديقتها « سعاد هانم شهدى » . . . وكانت هى تلبس فستانها الأسود اللامع وتحيط رقبتها بذلك العقد من اللؤلؤ الذى أهداه إليها أبوها خالد بك ، وأحست أن هيئتها وملبسها والجو الذى تثيره حولها من الحيوية والاعتزاز بالجمال والأناقة قد بلغ من « درى » ما تشتهى المرأة أن تبلغه من الرجل .

وكان « درى » فى قوامه الطويل الذى يتناسب مع امتلائه بعض الشىء . ملتقى العيون والهمس ، فحين تعلن « إلهام » اسمه يحيط به ذلك العبق الذى يحيط بالناجحين من الرجال .

° ° °

كانت « ناهد » فى هذه الفترة من حياتها قد خرجت من موقعة

عاطفية خاسرة ، فهى تشعر أنها مهزومة ، وتبحث عن انتصار يعيد إليها نفسها وثقتها بكيانها : أنثى وامرأة .

لم يكن من الصعب أن يتعارفا ، ولم يكن من الصعب أيضاً أن يتيح لهما البيت الكبير ركناً يخلو فيه كل منهما للآخر .

– أحس ألماً فى قدمى اليمنى .
– ليس مثل الألم الذى بقلبى .
– سلامتك .
– كيف لم أعرفك إلا اليوم ؟
– أتراك سريع التحرك فى عملياتك الطبية كسرعتك فى عملياتك العاطفية .
– إنه مجرد اندهاش .
– فقط ؟
– فقط .
– والألم فى قدمى .
– لا بد أن أفحصه .
– طبعاً .
– مكان الفحص هو العيادة .
– أعطنى موعداً .
– غداً الساعة السادسة .

– أتحب أن أدفع الفزيتة الآن ؟
– أظن أن معى ثمن البنزين الليلة .
– أخشى أن يدفع زبون آخر ويستولى على الموعد .
– لا تخافى الزبائن هنا لا يدفعون .
– هكذا أنت متأكد ؟
– خبرة طويلة ؟
– اتفقنا .

لم يكن عجيباً بعد ذلك أن تقوم الصلة بينهما . ولم يكن «الدرى» شقة ، ولم تكن العلاقة بينهما تحتاج إلى ذلك فقد كانت لا تتعدى بعض قبلات متطايرة . وكان «درى» يحتاج إلى تظاهر بالتدله والوله ليحصل على هذه القبلات . . . وفى يوم فوجئ بها تطلبه بالتليفون على غير موعد . فوجد نفسه يقول

– أراك .
– كيف .
– أمر عليك بالسيارة وتنزلين .
– وماذا أقول لأبى وأمى ؟
– ليس من المحتم أن يعرفا .
– إن لم يعرفا هما فستعرف دادة آمنة لاشك .
– ألا تقبل دادة آمنة الرشوة ؟

– لم أجربها معها .
– مغفلة .
– لم أكن محتاجة فلا تقل أدبك .
– ولكنك الآن محتاجة .
– لا يمكن ، إنها تتصور أننى ملاك طاهر .
– ألست كذلك ؟
– لو كنت ما طلبتك .
– حتى الطلب تعتبرينه شيئاً يستحق الكلام ؟
– أنت مجرم .
– مجرم خائب . . . آخر ما وصلت إليه قبلة .
– اسمع يا «درى» . . القبلة التى تحصل عليها هى أقصى ما أستطيع أن أعطيه . .
– رضينا ياستى .
– ولو كلمتنى فى هذا الموضوع بعد ذلك سأكف عن طلبك .
– فى عرضك .
– فاهم ؟
– فاهم .
– لو وعدتنى وحلفت ألا تكلمنى فى هذا مرة أخرى سألتقى بك الليلة .
– الليلة ؟

– كيف ؟
– لا شأن لك . . . فقط احلف .
– أحلف .
– بماذا ؟
– بك .
– قديمة العب غيرها .
– بشرفى . .
– بشرفك ؟ !
– جديد وشرفك . . . إنه شرف دكتور يحترم نفسه .
– سأرى مقدار اعتزازك بشرفك .
– سأقابلك فى البيت .
– فى البيت ؟ !

وعم اللقاء ، ولم ينل منها فى البيت أكثر من القبلة أيضاً . . وتعود أن يذهب إلى هناك ، وكانت آمنة تعرف دائماً ، فلم تطق السكوت .

– وآخرتها .
– لاأعرف ياداده .
– أنا خائفة .
– أتخافين علىّ ؟
– من كلام الناس .
– لا تخافى .

– اسمعى لا بد أن نصنع شيئاً . ،

– وماذا نصنع؟ .

– أنت لا تصنعين شيئاً . . أنا سأصنع .

وفى ليله وبينما هو معها يتحدثان . فوجئ بأبيها وأمها يدخلان إليهما ومن خلفهما آمنة .

وهم الوالد أن يبدأ المشاجرة المتفجرة . ولكنه كان أسرع منه :

– ياسعادة البك أنا أخطب منك ابنتك .

– تتزوجها الآن قبل أن تنزل .

– أمرك .

– أرسلى ياآمنة السائق يأتى بالمأذون . أو اذهبى أنت معه . ولا تعودى إلا ومعك مأذون .

– أمرك ياسعادة البك .

– وفى غد نعد لإقامة الفرح .

– أمرك .

ويتم الزواج على هذه الصورة ، ومنذ ذلك اليوم وهو يحس أن هذا الزواج فرض عليه فرضاًكانت الحياة بينهما مستحيلة . . . هو زواج بكل معنى الزواج ، إلا أنه فاقد للروح .

° ° °

كان يجلس إلى جانبى وكنت أحسّ أن بيننا أزماناً وبلداناً . حتى

وهو يعانقنى كنت أحس أنه يعانق غيرى . وأحس أن ذراعيه ذراعا رجل آخر . كانت القبلة التى يقبلها لى قبل الزواج أشد حرارة من الصلة الزوجية وهى فى قمتها .

لم أحس فى لحظة أنه تزوجنى فعلا . ولوأنه لم يذكرهذه الليلة مطلقاً . واعتبر ما حدث شيئاً طبيعياً كان من شأنه أن يحدث .

لم يكن عجيباً ألا تطيق «ناهد» النظر إلى الدادة آمنة فهى التى افتعلت هذا الزواج الذى ولد ميتاً والذى لم يكن الطلاق بالنسبة إليه إلا لتسجيل وفاة ودفن المتوفى . وإعلان ما كان سرًّا من شأن مماته .

ولم يكن عجيبا أيضاً أن يبحث «درى» عن شقة خاصة منذ اليوم التالى لهذا الزواج . فلم يكن «درى» يحب أن يتكرر هذا المشهد الذى ألف وأخرج ومثل فى بيت «ناهد» . إن تغيير خشبة المسرح فى مثل هذه المشاهد هام جداً . وكان لا بد له من شقة وقد استأجرها . فقد كان على ثقة أن زواجه من «ناهد» لا يمكن أن يستمر . فقد أحس منذ اللحظة الأولى أنه لم يختر زوجته بمحض حريته . وربما كان يخطبها إذا لم تفرض عليه . أما وقد فرضت . . فلازواج . . إنما هو عقد .

أكان يتزوجها حقًّا بعد أن سمحت له بالذهاب إلى بيتها . نعم لم ينل منها إلا القبلة ولكن هذه الجرأة ؟ . على كل حال ربما كان يتزوجها . . وربما كان الزواج كاملا وباختياره أما بهذه الطريقة التى تم بها فهو عقد قابل للفسخ . شأنه شأن أى عقد تجارى . . عقد بلا اختيار . . بلا حب . . بلا عاطفة . . . فهو بلا بقاء .

- ٥ -

إنها تحب أن تأمر وأنا لا أجد من آمره . أنا لا أعمل شيئًا إلا أن أطيع . حتى البنت سعاد لا تطيعنى . . . ولماذا تطيعنى وهى تعلم أننى أشتهيها وأشتهى خدرها وأعطيها ما تشاء من المال لتسمح لى أن أشاركها فى الفراش .

قد يبدو غريبًا أنه فكر فى سعاد ، فهو يخاف « سهام » كما لا يخاف أحدًا أو شيئاً . « فسهام » هى زوجته وربة بيته ، وأم أولاده ، وقبل هذا جميعاً هى مصدر رزقه وحياته وأمله .

هو لا يعرف كيف قبلته « سهام » زوجًا ، ولو كان عرف ما تغير الأمر كثيراً . وهو على كل حال انتهى فى ذلك إلى رأى . إن « سهام » رفضت الكثيرين ممن تقدموا لها حتى إذا شارفت الثالثة والعشرين دون زواج قبلته بالمصادفة العمياء دون إعمال لأى تفكير . ذلك ما انتهى إليه .

أما الحقيقة فهى أنها كانت تحب شابًا فى الجامعة هو « مهدى » . ووصل بينهما الحب إلى أقصى غاياته . وكان « مهدى » من الذين يحبون ألا يمروا بالجامعة مروراً سريعاً . وكان السقوط عنده أيسر من النجاح . وكان فى حياته يميل إلى الأيسر لا الأحسن . فتأخر « مهدى » فى طلبها . ونفدت أعذارها أمام أبويها . وقبلت « حمدى »

كما يفعل الإنسان أى شىء يعرض عليه ما دام الذى يريده لا يمكن الحصول عليه .

وظلت هذه الحقيقة خافية على « حمدى » طول حياته ، ولو عرفها ما تغير الأمر كثيرًا . فهو من هؤلاء الكثرة الذين يهتمون بالنتائج دون أن يهتموا بالأسباب التى أدت إليها .

وبعد الزواج وجد « حمدى » نفسه ضائعًا فى لجة متلاطمة من المال . ولا مال لديه ، ومن شخصية « سهام » الطاغية عليه . قبل أن يكون تابعًا لا متبوعًا . مأمورًا لا آمرًا . طيعًا كالقضيب اللدن طاوع فى الشكل اليد على حد تعبير شوقى أمير الشعراء .

والغريب - وإن كان هو لم يستغرب - أنه أصبح سعيدًا بمكانه هذا لا يريد عنه حولاً أو منصرفاً ، حتى لا يجزع إذا فكر أن سيضطر أن يكون متبوعًا ، لا تابعاً آمرًا لا مأمورًا ، صلبا لا طيعًا .

غير أنه فى هذه الغمرة كان يبحث لنفسه عن وجود يمارس فيه كيانه ، ويشعر فى ميدان هذا الوجود أنه لا يزال حيًا غير ميت . .

حاول فى المحاماة فخذلته شر الخذلان . فهى مهنة يحتاج الناجح فيها أول ما يحتاج إلى شخصية . ويحتاج الناجح فيها إلى جهد . ويجب أن يبذل جهدًا وأن يكون صاحب رأى يقف إلى جانبه .

وما هو بصاحب رأى . فكان لابد أن تخذله المحاماة .

حاول أن يكون أنيقًا . فلم يسعفه قوامه الأكرش القصير .

حاول أن يكون مهتمًا بأى شىء فلم يجد شيئاً يستطيع أن يسمعه . ويدعى الإعجاب به دون أن يسأل سائل عما فهم إلا الموسيقى . فهى أنغام ذات معنى عميق لمن يفهمها . ولا معنى لها لمن لا يفهمها . وعند الشرح يستوى الجاهل فيها والعالم . ويبدو الغبى كالذكى . والفاهم كمن لا يفهم .

وفى أطواء الخفاء كان يريد أن يشعر أنه رجل . وهذا الشعور كان لا يجرؤ على الانتقاض فى عميق نفسه . وهو فى أحضان «سهام» . كان دائماً يشعر أنه لا يفرض عليها حق الرجل على المرأة . وإنما كان يشعر أنها هى تمنحه – تفضلا ضمن ما تتفضل به عليه – جسم المرأة منها .

فهو فى أحضانها موهوب لا واهب . متفضلة هى عليه بلا تفضل منه . كان اللقاء بينهما ليس لقاء امرأة برجل . وإنما هو واجب تؤديه مع ما تؤدى من واجبات عليها كما عليه أن يشكرها عليه كما عليه أن يشكرها على كل شىء آخر .

كان يريد أن يكون رجلا ككل رجل ينال اللذة ويعطيها . ويتمتع ويستمتع . ويعطى ويأخذ . فإنه معها لا تعترف له بأى عطاء مهما يبذل .

والواقع أنها كانت تمنحه نفسها لأنه من الطبيعى أن تمنحه نفسها . ولكن شعورها بأنه لا كيان له كان يجعلها دائماً لا تحس برجولته . كان

اذا أجاد أحس أنها تقاضية ديناً مستحقًا . وإذا أخفق أحس أنه مدين مفلس يحرجه الدائن . ولا يجد من حرجه منقذاً .

فهو محق أن يبحث عن هذه الرجولة فى فراش آخر . وكان فراش «سعاد» هو أقرب فراش .

ولم تكن «سعاد» قبيحة . فهى فتاة سمراء شديدة السمرة . قوامها ميادٍ هفهاف . وهى زوجة لزوج لا يلقاها إلا فى إجازتها كل أسبوع . فالصلة بها مأمونة لا خوف منها إلا أن تمسك بها «سهام» .

وقد استمرت علاقته بها سنتين تقريباً . ولكنه مازال يعجب بنفسه كلما ذكر أول يوم تجرأ أن يهمس بالرغبة همستة الأولى لها .

وهو يحسب أن شجاعته هى التى أتاحت له ما تم بينه وبين «سعاد» . ولقد يخادع نفسه ويظن أن مركزه بوصفه البك هو الذى مهد لها السبيل . وقد يقف أمام المرآة . وتغشى عينيه غاشية من النرجسية والرضاء عن النفس . فيظن أن جماله قد أوقع «سعاد» فى شباكه . والا فكيف يبرر أن «سعاد» قد لبت أول إشارة له .

– عودك حلو يابنت يا «سعاد» .

– خدامتك ياسيدى .

– ترى أيعرف زوجك قيمته .

– جاءته خيبة .

– العود عطشان ؟

– ولا يسقية إلا العزيز الغالى .

– صحيح يابنت .

– خدامتك ياسيدى .

هو معذور إذن أن تذهب به الظنون حيث ذهب من الرضا عن النفس . .

ولكن الحقيقة كانت أبعد ما تكون عما ذهب إليه . فكل ما حدث كان من فعل «سعاد» فقد أدركت بذكائها أن هذا البك ضائع فى البيت . وأنه مستعد أن يكون رهن إشارتهم لو أباحت له نفسها : ثم هو لا شك سيغدق عليها من المال مالا تتوقع . وهى بعد لن تخسر شيئاً وماذا عندها فتخسره .

فحين تكلم عن عودها لم يكن هو الذى يتكلم . وإنما كان الإعداد الذى أعدته هى . فهى تعرف تماماً أن عودها جميل . وهى تعرف تماماً كيف تجعله أعظم جمالا . فلها وسيلتها أن يسطع النهدان منها . ووسيلتها أن يدق الخصر وينفر ما دونه . فكان لابد للبك أن يقول ما قال . وما دام قد قاله فكل شىء بعد ذلك ميسور قريب .

كانت ليلة باردة . وكانت «سهام» قادمة من شقة «درى» . وعندما دخلت فراشها أعطت له ظهرها . وكانت بينهما لغة خرساء فى الفراش . فهى إن أولته ظهرها فهى إنما تخبره أنه غير مسموح له بالاقتراب منها فى ليلته هذه وإن اتخذت وضعاً آخر فله أن يقترب .

ولكن المهم أن إشارة البدء لم تكن تصدر إلا منها هى وحدها .

وفى تلك الليلة الباردة أحس حنيناً . . تأكد أنها نائمة . وتسلل إلى فراش «سعاد» . لم تكن «سهام» نائمة . وإنما لسبب لاتدريه أوهمته بنومها . وحين تسلل تعجبت بعض الشئ . وانتظرت قليلا . ثم تبعته دون أن يند عنها صوت . رأته رأى العين فى وضوح لا شك معه فيما يفعله أو تفعله «سعاد» .

يا ابن الكلب .

دون أن تنطق . . تراجعت . .

ماذا أفعل ؟

واين أجد زوجاً مثل حمدى ؟

وأين أجد خادمة مثل «سعاد» ؟

وماذا حدث . لقد كنت الليلة فى نفس وضع «سعاد» مع «درى» .

كل ما فى الأمر أننى عرفت وهو لم يعرف . إذن فكأننى لم أعرف .

ولكن ماذا يستطيع أن يفعل هو لو علم بأمرى وأمر « درى » !

أما أنا فأستطيع أن أجعله شحاذاً .

إن قطعت عنه المال .

وإن تركنى من يحتمل أن يكون مثله .

المشكلة كلها يحلها شئ واحد .

أنا نائمة .
أنا لم أستيقظ .
أنا لم أر شيئاً .
أنا لم أعرف شيئاً .

° ° °

« كريمة هانم » لا تترك كرسيها فى النادى إلا حين يدعو داع لا قبل لها برده . ولجلوسها فى النادى أسباب قوية . منها أنها كانت راقصة شهيرة أحبها الأستاذ « سامى إبراهيم » المحامى وتزوجها فتركت عالم الرقص إلى عالم سيدة البيت . ولكن الماضى الذى يصر على أن يلاحق الناس لم يشأ أن يعفيها من قانونه الأزلى ، وقد أنجبت كريمة » « لسامى » فتاة تناهز الآن السادسة عشرة من عمرها . وقد أصر ماضى الأم أن يلاحق الفتاة أيضاً . وهكذا كانت « كريمة » تتشبث بكرسيها فى النادى . هاربة من ماضيها . باحثة لنفسها عن مكان فى مجتمع زوجها . والمجتمع – هذا المجتمع – لا يرفض فى صراحة ، وإنما هو يتظاهر بالقبول ثم يشيع الهمس فحيحاً له جَرْسٌ أغبر قاتم مشبوه .

وتحب « ماجدة » وهذا هو اسم الفتاة أن تنسى ما تعرفه عن ماضى أمها بأن توغل فى نشاط النادى موهمة أصدقاءها وصديقاتها ونفسها قبلهم أنها فتاة طبيعية . شأنها فى الحياة شأن أى فتاة .

وهذه الصداقات تتوطد أو توهن وتضعف دون سبب معقول يدعو لأى من النقيضين .

وكانت « ماجدة » تحب أن تلعب التنس ، وقد بلغت فيه مدًى أهّلها أن تدخل بطولات وكان « أسامة » يلعب التنس ، وقد بلغ فيه

مدًى يؤهله أن يتقدم إلى البطولات . ويحس « أسامة » من هذا ومثله أنه يستطيع أن يكون إنساناً قائماً بذاته يعتمد عليه غيره .

وحين نال « أسامه » شهادة الثانوية العامة . أصبح عنده سيارة . وكانت ماجدة لا تترك السيارة . بل إن « كريمة » كثيراً ما كانت تعتبر سيارة أسامة كأنها سيارتها الخاصة . وتطلب إليه ما لا يطلبه أحد إلا من الأقرباء المقربين . و « أسامة » سعيد « بماجدة » و « كريمة » معاً .

والأم « سهام » تحب دائماً أن تكذب عينها وما تسمعه . فصلة « أسامة » « بماجدة » فى رأيها إنما هى صلة من الطبيعى أن تقوم بين شاب وشابة يحبان اللعبة نفسها . وينتميان إلى ناد واحد . وإلى سن واحدة .

ولكنها فى عميق نفسها كانت هالعة أن تكون الصلة أكثر من ذلك . وأى مصيبة أعظم من أن يتزوج « أسامة » من « ماجدة » . . إن أمها . . . لا . . . لا . . . هذا لن يكون وإن بذلت دمى .

- ٧ -

كان الدكتور « درى » قد أوشك أن يترك العيادة حين قدمت إليه « فريدة » :

- أونكل « درى » .
- « فريدة » ؟
- كعب رجلى يؤلمنى .
- وجئت وحدك ؟
- هذه أول مرة أخرج فيها وحدى .
- وكيف جئت ؟
- « أسامة » لم يخرج اليوم . وأخذت سيارته .
- و « سهام » . . . أقصد ماما سمحت لك ؟
- ليست فى البيت .
- أين ذهبت ؟
- ولماذا أعرف ؟
- هل تحسنين قيادة السيارة فى هذا الزحام ؟
- ماذا جرى يادكتور . . أترانى طفلة أمامك . . . أنظر جيداً إلى من تتكلم .

ونظر . . . ولم يكن من قبل قد نظر . . إنها الشباب فى زهوة نضرته

يطل منها عينان . هما الجرأة . وهما الدعوة . وهما التحدى . وهما أيضاً ذلك الحياء الذى يزيد النار اشتعالاً . وأنف يشير إليك صاحبته تريد أن تحب وتبحث عن حبها . وتريد أيضاً أن تكون محبوبة . أنف فى طرفه نوع من الشموخ والكبر . وفى مداه تناسب مع وجنتين تعلوهما من قوة الشباب حُمرة ويعلو ذلك جميعا شعر كالشباب . عربيد كأيامه . يستعصى على الهدوء . ويتناثر كأنه لوحة فنان حديث .

– من أين هذا جميعه ؟

– ألم تكن تعرفه ؟

– أراه لأول مرة !

– لأنك لم تفكر أنه تراه .

– والشباب . . . زملاؤك . . . أصدقاؤك . . . ألا يرون هذا الذى أرى ؟

– يرون فىّ أكثر مما أرى فى نفسى .

– ولكنهم لا يعجبونك ؟

– فيهم غرور .

– ولا تحبين الغرور ؟

– قد أحبه لنفسى . ولكن لا أحبه لغيرى .

– ولماذا تظنين أننى لست مغروراً ؟

– غرور مثلك معرفة بقدر النفس وليس غروراً .

– ستجعلينني مغروراً .

– كن ما تريد . . فأنت كما أنت أحلى شئ فى الدنيا .

– شئ !

– عندى أنا ليس فى العالم أحسن منك .

– ولا سيارة كسيارة « أسامة » .

– ولهذا قلت شئ . . . أنت أحسن شئ فى الدنيا .

– أصبحت مغروراً فعلاً .

– وما البأس .

– هيا بنا .

– إلى أين ؟

– أرى كيف تقودين السيارة .

– وهو كذلك .

° ° °

- ٨ -

قد أقبل أى شئ إلا أن يتزوج « أسامة » من هذه « الماجدة » . ألم يبق إلا « كريمة » الراقصة لتكون حماة « أسامة » . ويقول لها الأولاد ياتيتا . ترى أى ألقاب الجدات ستفضلها « كريمة » تيتا . . نينا . . أنا . . ستو . لا يهمنى . ليكن اللقب ما تريد . إنما لن يناديها بها أولاد أسامة وإن بذلت حياتى .

- « درى » .
- كيف أنت يا « سهام » ؟
- أريد أن أراك .
- إننا سنلتقى غداً . . أليس كذلك ؟
- أريد أن أراك حالاً .
- ماذا حدث ؟
- لا بأس أن أخبرك بالتليفون .
- خيراً .
- لا يستبعد أن أصاب بالشلل .
- أعوذ بالله .
- « أسامة » سيجننى .
- ماله ؟
- ألا تعرف ؟

- من أجل « ماجدة » !
- أتراها مسألة بسيطة ؟
- لا تستحق كل هذا .
- لو تزوجها سأصاب بالشلل إن لم أمت .
- يا « سهام » أولاد هذه الأيام لا يمكن التحكم فيهم .
- إلا أولادى . أولادى لا يخرجون من يدى أبداً .

وحمد « درى » الله أن التليفون لم يعكس إليها هذه الابتسامة الساخرة التى ارتسمت على وجهه . . وراحت هى تكمل .

- أولادى أنا غير كل الأولاد .
- وماذا تريدين أن تفعلى ؟
- لهذا كلمتك .
- هل أستطيع أن أفعل شيئاً .
- أنت تحب « أسامة » و « أسامة » يحبك .
- إياك أن تطلبى منى أن أنصحه .
- ياسلام ! وما البأس أن أطلب هذا ؟
- النصيحة عملة غير مستعملة فى هذا الجيل . وأنا أكره أن أقف موقف الناصح على أية حال .
- اطمئن ياسيدى . المسألة غير هذا تماماً .
- إذن أنا تحت أمرك .
- أنا أخطب منك « عبير » « لأسامة »

– ماذا ؟
– ألم تسمع ؟
– سمعت .
– فما هذه الدهشة ؟ .
– أليست مفاجأة ؟
– كل خبر مفاجأة قبل أن تسمع .
– ولماذا أضحى ببنتى ؟
– إذا تزوجت بنتك « أسامة تكون ضحيت بها ؟ !
– إذا لم يكن أسامة يحبها .
– الزواج يولدّ الحب .
– أو يولد الكره .
– ولماذا تقدر السيىء ؟
– بقدر ما تريدين السعادة لأسامة أريد السعادة لعبير .
– أنت ترفض .
– أرفض أن يُفرض على عبير شاب لا يحبها .
– فإذا طلبها هو؟
– أشوف رأيها .
– ولكن المبدأ غير مرفوض عندك .
– الرأى رأى « عبير » . .
– اتفقنا .

– وشيء آخر !
– قل .
– يجب أن تكلمى « إلهام » أختك « وناهد » أيضاً .
– « إلهام أستطيع أن أكلمها أما ناهد . . .
– سترى ماذا ستفعل فى الوقت المناسب ؟
– أراك غدًا .
– ووضعت سماعة التليفون وما لبثت أن رفعتها
– حمدى .
– نعم يا سهام .
– ماذا تفعل ؟
– بعض ملفات لشركة المقاولات .
– اتركها وتعال .
– هل حدث شيء ؟
– ليس شيئاً جديدا وإنما أريد أن أكلمك فيه .
– ألا تستطيعين الإنتظار ؟
– حين أريد أن أتكلم فى موضوع لا أستطيع الانتظار .
– فى ظرف ساعة سأكون فى البيت .
– أريدك الآن .
– أمرك

° ° °

وقبل أن يأخذ مجلسه :

– ماذا سنفعل من أجل « أسامة » ؟

– ماله « أسامة » ؟

– هذه البنت التى لا يتركها ليلا أو نهاراً .

– أهذا شىء جديد ؟

– النار تأكلنى كل يوم وكانه شىء جديد .

– وماذا بيدنا أن نفعل ؟

– أنا أقلب الدنيا .

– قد تستطيعين أن تقلبى الدنيا ولكن هل سيفيد هذا فى صلة أسامة بماجدة .

– سترى ماذا سأفعل !

– أنا تحت أمرك .

– أولا أريد أن أخطب له « عبير » .

– عبير ؟

– نعم

– وكيف عرفت أنه سيقبل ؟

– هذا شأنى .

وقبل أن ينقضى اليوم كانت تزور « إلهام » .

– أريد « عبير » « لأسامة » .

– ماذا ؟

– وما العجب ؟

– لا عجب ولكن ما أسمعه عن « أسامة » .

– لا يهمنى ما تسمعينه .

– يا سهام أخاف أن نسىء إلى هذه البنت أكثر مما أسأنا .

– أنسىء إليها إذا طلبناها لابننا ؟

– إذا كان ابننا لا يريدها .

– أنت تعرفين أننى فى بيتى أنا وحدى التى أريد .

– أتستطيعين أن تقولى له يجب أن يحب « عبير » ؟

– أهكذا ينشأ بيت سعيد ؟

– وهل أحببت أنا حمدى ؟

– وهل أنت سعيدة ؟

– ما رأيك أنت ؟

– ليس من الحتم أن يتزوج ابنك من غير حب مادمت أنت لم تتزوجى عن حب .

– أنا أبحث عن مصلحته .

– أنا ليس عندى أولاد ولكن أخاف من تدخل الأمهات .

– حتى ولو لمصلحة الأولاد ؟

– كلمة المصلحة هى الحجة التى تشهرها الأم دائما ، وهى دائماً غير مقنعة للأولاد .

– أنا اعرف مصلحته .

– أنا لست ام عبير ولكنى ارعاها وارى نفسى مسئولة عنها ولعله من العدل أن ابحث أنا أيضاً عن مصلحتها .

– وهل تجدين لها خيرا من « أسامة »

– لوكان هو الذى يريدها .

– سأجعله يتقدم إليك .

– سترغمينه .

– سيطلبها منك .

ولم تنم « سهام » بل انتظرت « أسامة » حتى وصل إلى البيت بعد منتصف الليل .

– أسامة أين كنت ؟

– فى النادى .

– أنت الآن فى السنة الأخيرة . . .ألا ترى أنك لا تذاكر بالقدر الكافى ؟

– مالزوم هذا الكلام ! أنا أنجح دائماً .

– أراك تشغل نفسك بأشياء كثيرة .

– ولكننى لا أهمل المذاكرة .

– أنا خطبت لك .

– ماذا ؟

– « عبير » بنت عمك الدكتور . . .

– أعرفها طبعاً . . لا تحتاج إلى تعريف .

– ما رأيك ؟

– ماما كيف تخطين لى ؟

– أليس هذا من حقى ؟

– وأنا أليس لى حقوق ؟

– أنا أبحث عن مصلحتك .

– وأنا أليس من حقى أن أبحث عن مصلحتى ؟

– أتعرفها أكثر منى ؟

– قد أخطئ وقد أصيب . . أحب أن أتحمل نتيجة الخطأ ، وأفرح بالصواب . على شرط أن أكون أنا الفاعل

– وإذا جنبتك طريق الخطا هذا أليس خيراً لك ؟

– أمن الخير لى أن أصبح شيئاً تريدين له أنت كل شئ حتى القميص تختارينه أنت .

– وكل الناس تتكلم عن أناقتك .

– ليست أناقتى إنها أنت على جسمى أنا !

– وأنت الذى تتمتع بمديح الناس .

– أنا لا أتمتع لأنى لم أصنع ما يستحق المديح . أنا لم أقم باختبار شئ حتى أحس بحلاوة المديح !

– المهم الآن ماذا قلت ؟

– فيم ؟

– فى « عبير »

– ماذا تقولين أنت إذا رفضت ؟

– رفضت . . . أهذا معقول ؟

– مادمت تسألين الرأى فلا بد أن تتوقعى الرفض أو القبول .

– أنا لا أتوقع الرفض من أحد على الإطلاق ، وخاصة منك أنت !

– فإذا رفضت ؟

– تصدمنى صدمة عمر !

– أى رفض بالنسبة إليك صدمة عمر ؟

– لا داعى لتحليلى الآن .

– تفرضين على نفسك وترفضين أن أفكر .

– فكر كما شئت .

– منذ متى . أنت دائماً التى تفكرين لى

– لأنى أحبك .

– أخشى أن أقول لأنك تحبين نفسك .

– هل هذا الذى أفعله الآن من أجلك أو من أجل نفسى !

– من أجل نفسك وإن حاولت أن تقتنعى أنه من أجلى .

– « أسامة » لا تكثر من اللف وقل كلمتك .

– وهل لى من كلمة ؟

– إذن فأنت موافق .

– بل رافض وبكل شدة ؟

– غير معقول

– إنما هذا هو المعقول الوحيد .

– أتكره عبير .

– لوكنت اعيدها حقا لرفقت الطريقة التى تريدين أن تزوجينى بها .

– مجرد كبرياء .

– لابد أن أختار أنا زوجتى على الأقل . إنها ليست قميصاً أو حذاء .

– وهل اختيارى ضرر بك ؟

– بل قتل لى .

– إذن .

– هو ما سمعت .

– لقد استعملت حقك .

– مادام حقى فلى أن أستعمله .

– إذن فلأ ستعمل حقى .

– أنت حره .

– أنا صاحبة كل مليم يصرف فى هذا البيت .

– ، اذا ؟

– هو ما سمعت .

– أعرف أني سمعته .

– وهل كان عندك شك أنك ستسمعه .

– دهشتى أنه جاء متأخراً

– استعملته حين احتجت إليه .

– وترين هذا عدلا ؟

– أنا أرى . . .

– لست فى حاجة أن تجيبى عن هذا السؤال .

– أتعرف إجابته .

– إنها غير ما تفكرين فيه على أية حال .

– لا يهم . . . يهمنى الآن أن أعرف رأيك .

– وهل لى رأى .

– لك أن تختار .

– إنما يختار من يملك الاختيار .

– إذن فأنت موافق !

– بشرط أن تقبل « عبير » .

– إذا كلمتها ستقبل .

– وتريدين أن أكلمها أيضاً .

– « أسامة » اسمعنى جيداً فإنى أريد أن أكون واضحة .

– أنت فعلا واضحة .

– ليس بالقدر الكافى . لن أنفق عليك ولن أترك لك السيارة

المسجلة باسمى إلا إذا تزوجت « عبير » . لا يكفينى أن توافق أمامى ثم تذهب إلى خالتك من ورائى وتشكو لها ظلمى ، ولا يكفينى أن توافق أمامى وتهمل « عبير » حتى يكون الرفض من جانبها . موافقتك هذه لا تساوى عندى شيئاً . إنفاق عليك وبقاء السيارة مقابل زواجك . ولا أرضى شيئاً أقل من الزواج ولا حتى الخطبة . الطريق الذى ستسلكه إلى هذا الزواج شأنك أنت لا شأنى أنا .

– إنذار أشبه بإنذارات الدول الكبرى للدول المحتلة .

– ولا يهمنى تعليقك أبداً .

– أمرك . . والمهلة ؟

– أسبوع .

– أهو يكفى .

– أكثر من الكفاية .

° ° °

ذهب إلى خالته :

– طبعا ماما خطبت « عبير » منك !

– المهم رأيك

– يهمنى جداً أن أتزوجها .

– هل أنت راغب فيها حقاً ؟

– مستقبلى كله متوقف على قبولها .

– ألا تسألها

– ليس قبل أن تمهدى لى عندها

° ° °

وحين سألت « إلهام » « عبير » قالت :

– أبى أخبرنى .

– وأنت ما رأيك ؟ !

– « أسامة » لا يرفض ولكن أهو يرغب فى هذا الزواج فعلاً أم هى رغبة تنت « سهام » ؟

– لقد كلمنى وهو يبدو ملهوفاً عليك .

– ولماذا لم يكلمنى . . . أنا معه كل يوم فى النادى .

– طلب أن أمهد لك عنده .

° ° °

– « عبير » لقد عرفت .

– تخطبنى على طريقة الحريم .

– خفت أن ترفضى .

– وما البأس أن أرفض إنما كان يجب أن تواجهنى أنت .

– ها أنذا أواجهك .
– هل متأكد من شعورك .
– وإلا فلماذا أكلمك .
– لعلك تريد أن ترضى تنت « سهام » .
– ألا تعرفين كم أنت جميلة !
– مسألة الجمال لا دخل لها فى الموضوع .
– ونحن أشبه بالأقارب .
– كل هذا لا يهم .
– فما الذى يهم ؟ !
– إن كنت لا تعرفه فليس المفروض أن أقوله أنا لك .
– من الطبيعى أن أحبك .
– بالقدر الذى يكفيك أن تتزوجنى .
– ربما أكثر .
– هل تشك ؟
– ليست هناك مقاييس ثابتة .
– هل أنت واثق من شعورك ؟
– هذا لا شك فيه .
– أفكر .
– يخيل إلىّ أنكِ فكرتِ فعلاً !
– إنا لا أرى فيك عيباً .

– فلماذا التفكير ؟ !
– كلمة لابد أن تقال .

° ° °

حين ركبت معه « ماجدة » اضطر أن يقول :
– أنا واقع تحت ظروف لا قبل لى بها .
– ماما لا يخفى عليها شئ .
– أتقدر ظروفى .
– الحقيقة هى غاضبة .
– أين هى الآن ؟
– فى النادى .
– ومتى ستذهب إلى البيت ؟
– لماذا ؟
– أريد أن أراها فى البيت .

وذهبا إلى البيت وفى التليفون طلبت « ماجدة » من أمها أن تعود إلى المنزل حالاً .
– أنت عرفت .
– هل أنت طفل ؟ !
– أنا طفل حتى أتخرج من الجامعة !
– فهى إذن قد أرغمتك ؟ !

– وقبل أن أتخرج فى السنة الأخيرة وليس لى مكان أذهب إليه لابد أن يتم الزواج وفى أسبوع !

– وماذا أنت فاعل ؟ !

– سيتم الزواج .

– وفيم تريدنى ؟

– أرجوك ألا تغضبى .

– وماذا يهمك من غضبى ؟ !

– الكثير . .

– على كل إنسان أن يبحث عن مصلحته .

– أنا أعرف مصلحتى .

– اصنعها .

– أن أتزوج « عبير » .

– مبروكة عليك .

– ولكننى أحب « ماجدة » !

– وماذا تريدنى أن أفعل ؟ !

– لا شئ إلا أن تعذرينى .

– اسمع مثلك لا يهمه أن أعذره أو لا أعذره .

– لو كنت كذلك ما أصررت أن أكلمك .

– يابنى ربنا يعمل ما فيه الخير .

– اسمحى لى أن أقبل يدك .

– العفو .

– أرجوك .

° ° °

قال الدكتور « درى »

– « أسامة » أنا أعرف والدتك حين تريد شيئاً لا يقف أمامها شئ . إن كنت يابنى تريد أن تتزوج ابنتى تنفيذاً لأوامر « سهام » فقط فأخبرنى ولا شأن لك إنى أستطيع أن أُأثر عليها .

– مطلقاً ياعمى .

– و« ماجدة » ؟ !

– صداقة تنس ونادى ، وهل مثلك يهتم بالمظاهر ؟ !

– أنت واثق مما تقول .

– كل الثقة .

وتم الزواج . . وفى أسبوع .

° ° °

- ٩ -

كان الحب الذى هبط فجأة على « فريدة » لخالتها « إلهام » يثير العجب الداهش فى نفس « سهام » ولكنها فى نفس الوقت لا تجد أى مبرر لمنعه ، وحين تزوج « أسامة » من « عبير » طلبت « إلهام » أن تجعل العروسين يقيمان عندها فى البيت الكبير الذى يملؤه الفراغ إذا خرجت منه « عبير » .

وقد كان أهم شىء عند « سهام » أن يتزوج أسامة من « عبير » ، لا يهم بعد ذلك أين يقيمان ، ولعل إقامتهما عند « درى » كانت أنسب ، فهى تستطيع أن تزور البيت بغير حرج ، بعد أن كانت أختها تتجهم لزيارتها عند بدء زواجها من « درى » . مما جعلها تكتفى برؤية « درى » فى الشقة الخاصة .

أما « فريدة » فلم تكن تجد حرجاً من زيارة خالتها كلما شاءت ، من الطبيعى أيضاً أن تكون صديقة « لعبير » ، فالمظاهر إذن كانت طبيعية وكانت تستطيع فى يسر أن تخفى تلك العلاقة التى قامت بينها وبين الدكتور « درى » . وقد إستطاع هو بطبه وبما يعطيه لها من دواء أن يجعل تلك العلاقة لا تثمر شيئاً غير مرغوب فيه .

وكانت « فريدة » فى غاية الذكاء حين تعامل خالتها ، فهى تقدس

جمالها كأنها إله من آلهة الإغريق ، وهى تمتدح ملابسها مهما تكن هذه زينة أو تلك الملابس .

وكانت فريدة ذكية فى معاملتها لأمها ؛ فهى تطيعها طاعة مطلقة ، ولا ترتدى من الملابس إلا ما تختارها أمها ، بل هى فى خبث عجيب إذا أرادت شراء شىء أعجبها ، أخبرت أمها به أولاً إن رضيت اشترته وإن رفضت تركته .

وكانت ذكية فى صداقتها « لعبير » فهى دائماً تشعرها بأنها محل حب وحنان من خالتها ومن أمها ، وأنها القِبْلة التى يتجه إليها حب أبيها .

كانت أختاً مثالية فهى دائماً مهتمة « بأسامة » ، تشجعه أن يلقى إليها أسراره التى كانت هى على علم بها من النادى ، ولكنها تظهر له كأنها تسمعها لأول مرة . وقد كان أخوها يحبها فى إسراف ، حتى لقد أيدها فى طلب سيارة لها يوم حصلت على الثانوية العامة وأصر أن تكافأ بسيارة مثله .

وحين تخرج « أسامة » فى كلية التجارة قدم لأخته معطفاً انتقته له ولها أمها بالطبع .

وكان من الطبيعى إذن أن تكون «فريدة» متحمسة لرغبة «أسامة» فى السفر إلى البلاد العربية ليكون نفسه .

وكان من الطبيعى أيضاً أن تجن أمه جنوناً لهذه الفكرة ، فهى لا

تتصور ان يبعد «أسامة» عنها ويكون فى بلد آخر غير البلد الذى تعيش فيه ، ولعلها عجبت لنفسها يوم قبلت أن يعيش مع «درى» فى بيت واحد ، ولكنها فعلت ذلك رغبة منها فى زيارة «درى» فى بيته أى وقت وإلا لما سمحت «لأسامة» أن يقيم بعيداً عنها بأى صورة من الصور .

كانت «سهام» تستطيع دائماً أن تبدى غير ما تظهر ، وكانت تستطيع أن تلف وتدور حول ما تشتهيه ، حتى إذا أعياها اللف والدوران ، واجهت الأمر بعيون جريئة متحدية لا يعنيها أن يظهر من شعاعها ما كانت تخفيه .

كانت تريد أن تمنع «أسامة» عن السفر ، وكانت راغبة فى ذلك رغبة عارمة عاتية لا يقف عندها عقل أو منطق أوشئ من الروية ، وكانت تخشى أن تطلب إليه ذلك فى صراحة فيزداد إصراراً ، ولكنها كانت مطمئنة آخر الأمر أن المال فى يدها وأنها تستطيع أن تمنعه عن السفر وقتما تشاء ، ولكن شيئاً فى داخلها كان يجعلها ملهوفة خائفة أن يتمكن «أسامة» بوسيلة أو بأخرى أن يدبر أمراً ويسافر . فلم تملك أن تمنع نفسها ، وقالت له :

– إن كان من أجل المال . . !

– وهل يمكن أن يكون إلا من أجل المال .

– ألا يكفيك مالى ؟ !

– أريد مالى أنا .

– هل منعت عنك شيئاً ؟

– أنا عرفت قيمة المال حين تزوجت «عبير» .

– ألا تحبها ؟ !

– هذا موضوع آخر .

– أتريد أن تنتقم منى ؟ !

– هل أنت بالنسبة لى مال فقط ؟ !

– انت كل شئ بالنسبة لى . .

– لا تنسى «فريدة» !

– طبعاً أقصدك أنت وهى .

– وأبى ؟ !

– هل هى محاكمة ؟ !

– أقصد أننا كثيرون حولك . .

– وهل يبرر هذا سفرك ؟ !

– يجعله معقولا .

– وإذا طلبت منك ألا تسافر ؟

– أسأل عن الأسباب حتى أقتنع . .

– أنا أمك وأطلب إليك ألا تسافر .

– لقد تمكنت من هذا طوال الفترة التى كانت فيها تلميذاً ، أما الآن فقد تخرجت .

– هل معنى التخرج أن تستغنى عنى !

– معنى التخرج أن أعتمد على نفسى .

– أخصص لك مصدراً للمال .

– إن أموالك هى الجامعة التى لاتتصورين أن أتخرج منها مطلقاً . وإنما دائماً تريدين أن أبقى طالباً بها !

– لأنى أحبك . .

– لأنك تحبين أن نظلّ محتاجين إليك !

– أجننت ؟

– آسف لم أقصد .

– أنت حر .

– أرجو أن أكون حرًّا .

وخرج واشتعل بها الجنون . . أهذا ممكن ؟ ! لم تكن متهيأة للخروج . ولكنها لم تهتم وخرجت وركبت سيارتها . . وهى لا تدرى اين تذهب . . الوقت مساء وظلام الليل دامس . والنور فى الشوارع ينسكب فى عينيها قطعا من السواد ، والناس كأنهم قطعان من الغنم ، أو دمى فى السرك . . . كل الناس دمى . . . كل الناس تحركهم أصابع أخرى غير عقولهم . . منهم من تحركه أصابع الرغبة فى الغنى ، أو الرغبة فى الجنس الآخر ، أو الرغبة فى السيطرة . . أين « درى » الآن . . لا يمكن أن يبقى فى العيادة حتى الآن !

أنا لا أريد إلا أن أهيئ الخير لأبنى وبنتى وزوجى ، أنا لم أصنع

شيئاً إلا رغبة الخير لهم ، وصنع هذا الخير بكل ما أملك من قوة ومن مال . لماذا ينفر منى «أسامة» ؟ ! هو وحده ينفر منى . أما فريدة و«حمدى» فإنهما لم ينفرا أبداً . لماذا «اسامة» وحده ؟ ! لعلها «عبير» . ومَنْ قبل «عبير» ؟ لعلها هذه الراقصة وبنتها الخليعة ! ! لقد اقتلعته منها ، بعملية جراحية عنيفة ، ولكن لا بأس ، ولهذا يقول إننى أحب أن يظلوا محتاجين إلىّ . إنه لا يستطيع أن ينسى زواجه من «عبير» وتركه لهذه الفتاه ابنة الراقصة .

ساحت السيارة فى الشوارع القاهرة . . وفأجاة وجدت نفسها أمام بيت أختها فدخلت :

– إنه يكلمنى بثقة يا«إلهام» !

– ما العجب !

– لابد أنه حصل على المال الذى سيسافربه .

– ربما . .

– من أين ؟ !

– وماذا يهمك ؟ !

– أعرف فقط .

– لماذا لا تتركينه يسافر يا«سهام» ؟ !

– يسافر يا « إلهام » . . يسافر «أسامة» ! ويقيم بعيداً عنى . . أجننت ؟ !

– بل أحسب أنك أنت التى جننت !

– هل من تحب ابنها مجنونه ؟ !

– بل من تقتل ابنها بحبها هى المجنونة ! !

– أنا يا «إلهام» . . أنا . . . !

ذوق إذن من كأس لم تذوق منه أبداً ، لقد عشت تحقدين على جمالى وتركت لك الأطفال لم أنجب منهم شيئاً ، ولم تتركى الحقد علىّ . وذوق اليوم من أطفالك الغصة . تريدين اليوم أن تحبسى أبنك فى سجونك بإشارة من أصابعك ، ولكن «أسامة» رفض أن يكون مثل أبيه . أتحسين أن المال كل شئ . . إن كنت تملكين المال فإن غيرك أيضاً يملكه ، قولى ولا تسكتى . أعرف من حديثك هذا أن أسامة لا يزال صغيراً ، ألم يكن صغيراً يوم أرغمته على الزواج . . إنه لا يعرف كيف يتصرف ، فلماذا لا تجعليه يتعلم كيف يتصرف ؟ ! وعندما يمرض ! وما البأس من أن يمرض ! فى كل بلد أطباؤه ، اتركى عنان الفتى يا «سهام» . . اتركى «اسامة» يا «سهام» .

– اتركى «أسامة» يا «سهام» . .

– أتركه لمن ؟ !

– لنفسه . .

– إنه أهبل ! !

– لِمْ تقولى هذا حين خطب «عبير» ؟ !

– و«عبير» طفلة . . !

– دعى الأولاد يكبروا معتمدين على أنفسهم .

– إلهام هل أنت التى أعطيت « أسامة » مصاريف السفر ؟ !

– وما البأس . . !

– إذن فلن أدخل بيتك مرة أخرى ، لو كان لك أولاد لفهمت حب الأم . .

وابتسمت « إلهام » وهى ترى أختها تنتقض خارجة تاركة وراءها كثيراً من الضجيج .

فى الشارع وحدها مرة أخرى . تريد « درى » ولا تدرى أين تجده

ليس عجيباً أن تساعد « إلهام » « أسامة » على عصيانى ، فهى لا أولاد لها ، وحقد الأخت أشد من حقد الأخرين ، وما لها لا تحقد ، لقد بدأنا أنا وهى فى السن التى نفكر فيها فى أمور أخرى غير جمالنا . لقد بلغت سن الحقد ، فما هذه العلاقة « بدرى » ، إنها علاقة ممتدة لم أبدأها الآن ، وإنما هى تسير لأنه من الطبيعى أن تسير ، ولكن أين « درى » ، الآن هو طبعاً ليس فى الشقة ، ماذا يمكن أن يصنع هناك وليس بيننا موعد ، ولكن لابد أن أراه ! !

كيف يسمح « لإلهام » أن تعطى « أسامة » ما يحتاج من نقود ليسافر . . طبعاً هى تدعى أنها تنقذه منىّ . كأنها تحبه أكثر مما أحبه أنا !

لا أحد يحب أبناءه قدر ما أحب أنا « أسامة » و « فريدة » . إنهما نبضة من قلبى . . إنهما الدماء التى تجرى فى عروق . . إنهما كل شىء لى . . وأنا أيضا كل شئ لهما . . كيف يفكر « أسامة » فى عصيانى لا شك أن « ألهام » شجعته على ذلك وليس ببعيد أن « عبير » أيضاً شجعته . لا أحب هذه « العبير » إنما زوجتها له إنقاذاً له من البلوى الأخرى ابنة الراقصة ! ! كيف أرى « درى » . .

لماذا لا أذهب إلى الشقة وأظل أطلبة حتى أجده . لن أستطيع النوم الليلة إذا لم ألتق به . والدنيا برد وما أظنه سيتأخر عن البيت . لعله يكشف على مريض فى مكان ما . أو لعله فى زيارة لصديق ، ولكن ما يلبث أن يعود إلى بيته .

ذهبت إلى الشقة . . إن الصالة مضيئة . . إذن فهو هنا . . لعله مر مروراً عابراً . . إنى سعيدة أن أجده . . فتحت الباب . . ليس بالصالة أحد . . ولكن هناك شئ . . شئ . . إنه معطف . . معطف كهذا الذى اشتريته « لفريدة » وصرخ كيانها جميعاً لا لا واحتبست الصرخة لا تصل إلى الشفاه . . أمعقول هذا ! هى خطوة أو خطوتان وأعرف الحقيقة كاملة . . ولكن هل أريد أن أعرفها ؟ ! أحست أن الأرض تميد بها ، وراحت تلقى نظرتها على الأشياء . لقد اشترت هذا الطاقم هذه الكنبة وهذان الكرسيان هى التى اشترتها . . هذا الكرسى الذى يحمل المعطف اللعين هى التى اشترته ، وكانت سعيدة وهى

تشتريه . أثاث الشقة جديد وكأنها عروس تجهز نفسها للمرة الثانية بل للمرة الأولى . . فهى فى زواجها الأول لم تختر الأثاث بحرية . وإنما كانت تختاره لها أمها . . أما لهذه الشقة فهى وحدها صاحبة الاختيار . راحت تنظر إلى الأثاث فى سرعة ، ورأت نفسها فى المرآة لا . . إنها ليست هى . . ليست هى تلك الغادة التى اشترت هذه المرآة ، بل إنها ليست هى هذه السيدة التى دخلت منذ لحظات . . وفجأة تنبهت . . إنها ليست فى المكان الذى ينبغى لها أن تكون فيه . يجب أن تكون فى أى مكان . أى مكان . . وليكن الجحيم نفسه . ولكن أبداً لا يجوزلها أن تكون الآن وفى هذه اللحظة فى هذا المكان .

خرجت وأغلقت الباب بهدوء يعدل الثورة التى تمور فى نفسها ، وهمت أن تأخذ المفتاح معها ولكن وجدت أنه لم يصبح لوجوده فى حوزتها أى سبب . . تركته . . ولم تنتظر المصعد وإنما راحت تهرول على السلم تريد أن تبتعد . لم تكن تريد أن تبتعد عن « درى » ولكن تريد أن تبتعد عن الحقيقة ، ربما يكون المعطف معطف « فريدة » وقد لا يكون ، ولكنها لا تريد أن تعرف الحقيقة أبداً . . أبداً لا تريد أن تعرف الحقيقة . . إنما تريد أن تترك للوهم والتخمين مجالا واسعاً ولا تريد هذه الحقيقة القاصمة القاتلة السفاكه .

إنها فقدت « درى » ، ولعلها تستطيع أن تفقده . ولكن ابنتها كيف تفقدها . . وكيف تنسلخ عنها ، لتكن « فريدة » هى شريكة

« درى » ولكنها لا تريد أن تعرف ، ولتكن غيرها ولكنها لا تريد أن تعرف . يكفيها أنها عرفت أنها فقدت « درى » وإلى الأبد .

ركبت السيارة واندفعت كالمجنونة تبحث عن شئ تمارس عليه جنونها ، ولم تجد إلا عجلة القيادة ، وسرعان ما تبينت أن زحام الطريق لن يتيح لها هذا الجنون . أوقفت السيارة فى شارع بعيد عن شقة الخيانة ، ونزلت إلى الطريق ، لم ترد أن تعود إلى البيت . قبل « فريدة » فقد كان أخشى ما تخشاه أن تذهب إلى البيت وتبحث عن المعطف فلا تجده ، أو تنتظر « فريدة » فتجدها داخلة إليها وهى تلبس هذا المعطف .

إنها لم ترد أن تفاجأها فى أحضان « درى » وكانت تستطيع أن تدعى أنها رأت سيارتها ، فسألت البواب عمن يسكن بالعمارة وعرفت أن « درى » من بين السكان ، فصعدت لترى ماذا تفعل ابنتها ، لم يغب عن ذكائها أنها كانت ستحتاج إلى تلفيق هذه القصة لتبرر وجودها فى شقة « درى » ، ولكنها لم ترد أن تعرف الحقيقة ، ولم ترد أن تراها ، فمن الطبيعى ألا تحتال لتراها .

كانت تستطيع أن تعرف بوسائل كثيرة ، ولكنها زفضت هذه المعرفة المنكرة وابتعدت عنها .

وكانت تستطيع أن تنتظر من الباب الخارجى للعمارة لترى الخارجين جميعاً .

وهى الآن لا تريد أن تعود إلى البيت . . وستظل تمشى فى الطرقات حتى تتأكد أن « فريدة » قد عادت ، وأنها خلعت المعطف إذا كانت هى صاحبة المعطف الملقى على الكرسى الذى اشترته ، هذا إذا كانت « فريدة » هى صاحبة المعطف . فهو على أية حال معطف جاهز ، وقد تكون غيرها قد اشترت مثله وهى لا تريد أن تزيد الشك شكاً . فلتذهب « فريدة » إلى البيت ، ولتخلع المعطف وليكن كل ذلك بعيداً عن عينيها .

وراحت على غير هدى تدور فى الطرقات ، وكأنها هى نفسها قد أصبحت دواراً أصاب الزمان والمكان جميعاً .

° ° °

حين خرج « درى » مع « فريدة » أقفل الباب وأخرج المفتاح من جيبه ليكمل إغلاق الباب . ولكنه فوجئ بمفتاح « سهام » يسد مدخل المفتاح .

– يانهار أسود

وسألته « فريدة » فى بساطة :

– ماذا ؟

وأرتج عليه لحظات ثم وجد نفسه يقول :

– لقد نسيت المفتاح على باب الشقة .

– بسيطة .

– ولكن كان الممكن ألا تكون بسيطة .

– ولكن وجهك ممتقع وكأن أحداً رآنا ! !

– رآنا . . رآنا . . لا . . لا أظن

– لا تظن . . أيمكن أن يرانا أحد ولا تحس به .

– فعلا . . فعلا . . معك حق . . هيا بنا .

ونزلا معاً ولكنه قبل أن يخرج من باب العمارة توقف فجأة .

– أخرجي أنتِ واركبي سيارتك وامشي فوراً .

– ماذا بك ؟ !

– لا شئ . . مجرد احتياط .

– ومتى أراك ؟

– كلميني .

– حسناً .

– أو اسمعي . . تعالى غداً .

– غداً ؟

– غداً إني أريدك في شئ هام . . غداً .

– أمرك .

وخرجت . . وانتظر قليلا وخرج وراح يتلفت حواليه لم يجد سيارة «سهام» فازداد حيرة وتوجساً وخوفاً . . ولكن كان لابد أن يذهب إلى بيته .

° ° °

- ١٠ -

إذن فلا بد أن ألد ، إننى منذ فترة أصبحت أتوق إلى الأولاد . لا أدرى أى جديد غيّر نفسى وجعلنى أتوق إلى الأطفال . أهو السن ، وقد علت بى . أعلت بى السن – على كل حال لم أعد صغيرة كما كنت حين رفضت أن ألد ، ولكن الأن أريد طفلا ، طفلا ألده أنا ولا أربيه لغيرى . مهما أقدم « لأسامة » من عطف يجسّمه المال حيناً ، أو يجسمه الاهتمام حيناً آخر ، فيسظل « أسامة » ابن « سهام » وليس ابنى وسأسمعها تعيرنى بأننى لم ألد ، فهى جديرة دائماً بأن تقول أى شئ فى جرأة ووقاحة لا يبلغها احد ! !

ومهما أبذل من اهتمام «بعبير» ومهما تقل لى ماما « إلهام » فستظل دائماً ابنة « ناهد » « درى » ولن تكون ابنتى ، أريد لنفسى طفلا ولن أسكت حتى أنال هذا الطفل . لعل « درى » لا يهمه أن يكون له ولد منى ، أما أنا فيهمنى . . لقد أوقفت تناول الدواء منذ فترة ومع ذلك . .

ويقطع عليها « درى » هذا التفكير المُلحّ وهو يدخل ممتقع الوجه لا إشراق فيه ، ولا تلحظ هى ما به فقد كانت فى رغبتها هذه مطمورة لا تفكر فى إنسان آخر ، وقبل أن تجيب تحيته المرتجفة :

– « درى » أريد طفلا .

ولم يكن « درى » صالحاً لأى نقاش ، ولكن كان لابد أن يجيب .

– وماله .

– لماذا لا أنجب .

– حين تزوجنا لم تكونى راغبة .

– وأصبحت راغبة .

– هل ترين أن سننا الآن تصلح ؟ !

– هل كبرنا ؟ !

– أرقام عمرنا تقول ذلك .

– لدرجة أننا لن نستطيع الإنجاب .

– « إلهام » أنا متعب !

– أنا لا أراك إلا فى هذه الساعة كل يوم وتستكثر على أن أكلمك !

– هذا الموضوع ليس من السهل بحثه الآن .

– أريد أن أذهب إلى طبيب .

– إذهبى .

– متى .

– فقط يا« إلهام » قد يقول الطبيب إن سننا لم تعد تسمح .

– دعه هو يقول .

– لاتنسى أننى أيضاً طبيب !

– طبيب عظام .

– ولكنى متخرج من كلية الطب .
– ولكنه ليس تخصصك .
– نذهب معاً .
– متى ؟ !
– متى تشائين !
– غداً .
– غداً نرى .
– لانرى .

ويقطع عليهما مجىء « عبير » « وأسامة » الحديث كلاهما عابس متجهم . والأب مذعور فى داخله . وأكثر ما يخشاه أن يدخل فى نقاش آخر مع ابنته وزوجها . لم يغفل ما هما عليه من مغاضبة . ولكن لم يرد أن يسأل . ولكن متى كانت « عبير » تنتظر السؤال . إنها لم توجه كلامها إليه وإنما التفتت إلى « إلهام » .

– ماما « إلهام » إسألى البك مع من كان يجلس اليوم فى النادى ؟ !
– هل أنا محجور على ؟ !
– ياأخى إذا كنت تريد الزواج منها فما الذى منعك !
– ياستى لقد تزوجتك وانتهى الأمر .
– فما معنى جلوسك معها فى النادى ؟ !
– وتنتظرين أن أهرب منها ؟ !
– أنت الذى ذهب إلى الشلة التى كانت تقعد معها .

– وما العيب فى ذلك ؟ !

– ألا تدرى ما العيب ؟ !

– ما العجب فى ذلك ؟ !

– لماذا اخترت هذه الشلة بالذات ؟ !

– أصدقائى وصديقاتى ماذا فى هذا ؟

– لقد قلت بلسانك .

– ألا تعرفين ذلك !

– أنا منتظرة أن أعرف منك .

– وها أنت عرفت .

– ياسعادة البك أرجوك أن تفوق لنفسك ، ليس فى النادى من يجهل صداقتك هذه ! !

– وماذا فى هذا ، أنا ألعب تنس وهى تلعب تنس .

– والتنس لا يُلعب إلا معها ! !

– وهل تنتظرين أن أرفض اللعب إذا جاءت إلى الملعب ؟ !

– وهى ما الذى يأتى بها إلى الملعب الذى أنت فيه ؟ ألم تعرف أنك تزوجت ؟ !

– وهل معنى أننى تزوجت أن أخاصم الناس ؟ !

– أيعجبك هذا الكلام يا ماما « إلهام » ؟ !

– والله يا ابنتى أنا لا أفهم شيئاً .

– ماما « إلهام » ألم تفهمى ؟ !

– الذى أعرفه أنه مادام تزوجك فلا تخافى عليه . وهل فى النادى من هو أجمل منك !

– هذا فى رأيك أما سعادة البك فله رأى آخر .

– أرجوك يا عمى درى اشترك معنا فى الحديث .

– أترك عمك « درى » فى حاله . . أنا ذاهب لأنام .

وقام عن ثلاثتهم ، ولكن « أسامة » ما لبث أن قام هو الآخر وبقيت السيدتان وفى نفس كل منهما كلام متنافر كل التنافر . فإحداهما خائفة على زوجها أن تحيط به الفتاة الأخرى . وأما الثانية فمشغولة بهذا الجديد الذى يلحّ عليها إلحاحاً شديداً ، حتى ليخيل إليها أنها لن تعرف إلى الهدوء سبيلا إلا إذا رزقها الله بولد أو بنت .

وكل من السيدتين لا يريد أن يتكلم فالصمت هو اللغة الوحيدة التى يمكن أن تكون مشتركة بينهما .

حين ذهب « درى » إلى حجرته سارع إلى السرير يريد لهذا الليل المهموم الضبابى أن ينقشع عن يوم جديد ، ليعرف ما الذى عرفته « سهام » فالليل بالنسبة إليه طويل طويل كأنه الدهر ، وهو لا يستطيع أن يتكلم فى التليفون ، فإن التليفون يتعذر فيه الحديث فى هذا الوقت من الليل ، وهو بعد لم يتح له الوقت الذى يحتاج إليه ليكذب ويؤلف ويعتذر ويموه . فلم يكن أمامه إلا أن ينتظر .

° ° °

أما « أسامة » فقد كانت تدور فى نفسه خواطر أخرى وكان يخشى أن يطول الحديث بينه وبين « عبير » فيقول ما لا يريد أن يقول ، فالنوم هو حصنه الحصين وهو قد تحصن .

° ° °

- ١١ -

- كل علاقة لابد أن تنتهى
- لقد أخطأت الفهم .
- لا أريد أن أعرف شيئاً .
- أشرح لك .
- لا تجهد نفسك .
- على الأقل لتعرفى الحقيقة .
- لا أريد أن أعرفها .
- اسمعيها .
- كنت استطيع أن أرى الحقيقة بالأمس وهربت .

وساد صمت واسترجع نفسه . . لقد أيقن أنها لم تعرف شريكته وكان هذا وحده كافياً أن يهدأ !

- باليتك كنت دخلت .
- تستطيع الآن أن تقول مائشاء .
- لو كنت دخلت لزالت كل الوساوس من ذهنك .
- « درى » نحمد الله أن علاقتنا لم تنكشف حتى الآن أنا طبعاً كنت مقدره أنها لابد أن تنتهى . . لابد لنا الآن أن نرعى أولادنا .
- لا أحب هذه العلاقة أن تنتهى بالصورة التى صنعتها !
- تصور أنك قلت لى ما أعددته لتقوله طوال الليلة الماضية .

وتصور أننى صدقته ، ولكنى مع هذا أريد أن أنهى هذه العلاقة . . لقد استمرت أكثر مما يجب .

- اسمعينى .
- لا يجدى أن أسمعك ، وأعتقد أنك أنت يجب أن تنهى علاقاتك الخارجية . مجرد نصيحة تستطيع أن تأخذ بها أو لا تأخذ .
- ليس لى علاقات خارجية .
- إن كان لك .
- أنت غاضبة !
- « درى » أرجوك . الموقف لا يحتمل أى إطالة .
- لهذه الدرجة .
- ليست هناك درجة . . لقد كان ما رأيته أمس هاماً جداً لكى أفيق . أنت لا تعرف ، أو لعلك تعرف - لاأدرى - ماذا دار فى ذهنى ، هذا المعطف الكريه الذى رأيته - أشياء كثيرة طافت بذهنى ، أنا لن أتعرض لهذا مرة أخرى مهما تكن العلاقة بيننا هامة ، لن أسمح لك ولا لنفسى أن أتعرض لهذا مرة أخرى .
- لن تتعرضى .
- لا يكون هذا إلا بقطع علاقاتنا ، وإذا تكلمت فى الموضوع مرة أخرى سأقطع المكالمة .
- أمرك
- كيف سمحت « لإلهام » أن تساعد « أسامة » على السفر .

– « أسامة » ليس صغيراً يا « سهام » .

– إنه ابنى .

– هذا لا يجعله صغيراً .

– أنا الذى وهبته الحياة .

– لا يعنى هذا أن تستردينها منه .

– أتشجعه أنت أيضاً .

– ما الذى يجعلنى أمنعه ؟ !

– بنتك .

– إنها زوجته .

– أتسافر معه ؟

– عندما يستقر ستسافر إليه .

– إذن فقد دبرتم كل شئ .

– أى باس فى ذلك ! !

– أهذا تأثير « إلهام » عليك ؟ !

– أنا مقتنع بهذا الرأى .

– برغم ما تعرفه عن رغبتى !

– لقد طلب منى « أسامة » أن أقنعك .

– ولماذا اختارك أنت .

– يعلم مكانتى عندك .

– ولكن أنا لا مكانة لى عندك .

– كيف تقولين هذا ؟

– لو كانت لى مكانة عندك لمنعت « أسامة » من السفر !

– « سهام » اسمعى ما سأقوله لك . إسمعيه جيداً . « أسامة » سيسافر سواء وافقت أو أعترضت ، ومن الخير لك أن تجعليه يسافر وهو ابنك ، بدلاً من أن يسافر وهو لا يهمه أن يكون . .

– أنا أعرف ابنى واعرف كيف أمنعه من السفر ولا شأن لأحد .

– افهمينى .

– لا أريد أن أفهم شيئاً أو أسمع شيئاً . . مع السلامة .

° ° °

حين ذهبت « فريدة » إلى شقة « درى » وجدته منتظراً فى البهو . خلعت معطفها وجلست تقول :

– مالك ؟

– مالى ؟ !

– منذ الأمس وأنت إنسان آخر .

– تفكير معين يلحّ علىّ .

– ما هو ؟ !

– أنت قاربت سن الزواج .

– عجيبة .

– ما العجيبة .

– لقد خطبنى اليوم هشام زكى .

– هشام زكى ؟ !

– شاب فى النادى .

– ماذا يعمل ؟ !

– متخرج فى الهندسة هذا العام .

– وما صلته بك ؟

– أهى غيرة ؟

– أريد أن أطمئن عليك .

– ليست هناك صلة خاصة ، مجرد واحد من الشلة .

– وماذا قلت له ؟

– وهل تتصور أن أقول له شيئاً قبل أن أسألك !

– وأنت ما رأيك ؟

– الزواج أمر لابد منه على كل حال .

– لا شك .

– هو شاب لا بأس به .

– أعطينى فرصة أسأل عنه .

– وهو كذلك .

– وأخيرى « سهام » ، أقصد والدتك واطلبى إليها أن تجعلنى أسأل عنه .

– لماذا أطلب منها هذا ؟ ! أليس من الطبيعى أن الذى يسأل عنه يكون أبى .

– طبعاً هذا ما كان يجب أن يحصل إلا أن أباك لا يرى أحداً ولا يذهب إلى النادى ، فالطبيعى أن أسأل أنا فأنا أقرب صديق للأسرة .

– معقول .

– إذن فستتزوجين .

– لقد كنت تقدر هذا كما قلت لى .

– المسألة تحتاج إلى إجراءات .

– نعم .

– وقد أعددت كل شئ .

– هذا ما كنت أتوقعه .

– ليس هذا غريباً على ذكائك

– موعد مع الدكتور مجيد فؤاد باكر الساعة الثانية عشر ظهراً .

– هل سأتألم ؟ !

– لا ألم مطلقاً فى ظرف ساعة تعودين عذراء كما كنت وتذهبين إلى البيت كأن شيئاً لم يحدث .

– وهو كذلك .

- ١٢ -

إذن فتلك هى الحرية ، إذن فهذا ما كنت أسعى له حياتى كلها ولم أصل إليه إلا اليوم ، كانت أمى ترد عنى الجرية كلما تنسمت منها نسمة ، كانت تذكرنى دائماً أنها ولدتنى لتكون هى إرادتى ورغبتى وامالى ، وتحقيق هذا الأمل ، فإن لم يكن أملى هو رغبتها عدلته وأصلحت من شأنه حتى أصبح أنا رغبة من رغباتها وأمنية من أمانيها ، وهمسة من نفسها ، وهاجساً من هواجسها . تخلصت اليوم من كل سيطرتها ، بل تخلصت من مصر كلها لأنشئ حياتى هنا ، ويل نفسى من حب مصر . إنه هو الذى لم أستطع التخلص منه ، حنايا الذكريات ، وخفقات الجنون ، ونجاحى وفشلى وحبى وبغضائى ودمائى وأفكارى ، أمسى ويومى وغدى ، وغد اطفالى أن كل عرق من عروق معجون بترابها . أحبها كما هى وكما أشتهى أن تكون ، بكل ما فيها من متاعب وبكل ما أرجو لها من رفعة وسمو . أحب التليفون فيها لا يجيب ولا يبدأ حديثاً ، وشوارعها بما صارت إليه ومواصلاتها المملؤة بالبشر متهالكة ، وقطارها وقد علاه الآدميون حتى لا يبين ، وأحبها وقد زالت عنها آثار الحروب هذه وعادت مرة أخرى عروس الشرق ومنارته .

لقد إستطاعت الحروب أن تخرب التليفونات والشوارع والخافلات

والقطارات ، بل حطمت مستوى التعليم أيضاً ، ولكن مصر هذه الخالدة تظل منارة الثقافة العربية ، لا ينازعها فى ذلك منازع ، ليطبعوا الكتب حيث شاءوا وليطبعوا وليترجموا من الأدب الغربى ما شاءوا أن يترجموا ، وإنما ستظل الثقافة المصرية والفن المصرى مصدر الثقافة والفن العربيين فى المشرق أجمع .

حريتى من حب مصر ، لم أستطيع نزعها من نفس وكيف لى بهذا ! إن نزعت من نفس ارتباطى بمصر سأنتزعها كلها لا أبقى منها شيئاً . إنها تسيطر علىّ هنا أكثر مما تسيطر علىّ هناك ، إن لهم شعوراً نحوها عجيباً هنا . إنهم يكبرونها وينفرون منها ، يحبونها ويغضبون أبناءها . فقد خيل إليهم أننا نبحث عن المال عندهم . والذى يتخيلونه حق فإن الحروب التى خضناها أنضبت جيوبنا من المال ، ولكن لم تنضب رءوساً من ثقافة سبعة آلاف عام ، ولم تنضب تاريخا من الجلال ، ولم تنضب مستقبلنا من الأمل إن يكن مر بنا زمان أحمق أجدب الخير منها فإن هذا العهد لم يستطيع أن يجدب تاريخها من الشموخ ومستقبلها من الأمل . ما أنا حتى أحب مصر . ما أنا إلا طفل عابث على هامش الحياة تحرك أمى خطواتى بإطاعتى لها أو بعصيانى لرغباتها .

ألهو فاحطم حياة البنات ، أحب هذه وأتركها وأتزوج تلك وأطلقها ، وأنجب من زوجتى وقبل أن أرى الطفل أترك الأم . عابث أنا

حقير ، ولكننى لا أحس أننى شئ يستحق الوجود إلا حين أذكر أننى مصرى . وأننى أعبد بلدى من بعد الله .

إنها الحب الذى لا يخون . وإن طلبت الفداء فلنفسى تطلبه ولأولادى ولأهلى ، وتقبلنى غنياً وفقيراً ، متعلماً وجاهلاً ، كريماً وحقيراً . تقبلنى كما أنا وكما هيأنى الله أن أكون .

إنها هى التى لم أستطع أن أتحررمنها وأنا أسعد الناس بعبوديتى لها . أما أمى فقد تحررت منها تماماً . ولكن هل نلت حريتى حقًّا ألا يستعبدنى هنا صاحب المال . هراء أنه يعطى مالا مقابل عمل أنا أتقاضى مالاً مقابل جهد . ويوم أضيق به أستطيع أن أتركه لغيره وتلك هى الحرية .

لقد أصبحت حرًّا : تحررت حتى من آثار أمى وطلقت « عبير » . طلقتها وهى حامل لا أريدها ولا أريد حتى أن أحب الطفل الذى أنجبته رغبات أمى .

خالتى « إلهام » كانت تريد طفلاً . ما البأس أن تتولى شأن الطفل ، فالطفل منى ومن ابنة زوجها فما هو عنها ببعيد .

وأرسلت إلى ماجدة أن تأتى لأتزوجها وقد جاءت مع أمها وتزوجنا .

عجيب أمرى . أكانت ماجدة هى من أحب ؟ أم تراها تمثل لى

شيئاً لا تريده أمى ؟ إننى بعد الزواج لم أكف عن ملاحقة الفتيات والنساء ! أى إنسان أنا ؟ أبحث عن حريتى بين أطلال النفوس التى أخربها .

مسكين كل إنسان يتصل بى ، أم ترانى أنا المسكين .

ماذا يخبئ الغد لى ولزوجى ولابنى ليتنى أعرف ؟ أولماذا أعرف ؟ إن أجمل ما فى الحياة أن تظل غيباً مستوراً وأجمل ما فى الإنسان أن أحداً لا يعرف ما يخفيه هيكله ، فالله وحده الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

مطبعة نهضة مصر